بَينَ أَشْجَارِ الجُنَّار

راكح لكشيري

بسم الله الرحمن الرحيم

بَينَ أَشْجَارِ الجُنَّار

راكح لكشميري

جميع الحقوق
محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٤٥هـ - ٢٠٢٤م
إسلام آباد - باكستان

هذه الرواية إهداء إلى كل من
شهد عملية الجيش الباكستاني
(البنيان المرصوص) ضد الهند

١٢ ذو القعدة ١٤٤٦هـ
١٠ مايو ٢٠٢٥م

+92 333 333 22 86
rasikh@alkashmiri.com
https://linktr.ee/alkashmiri

(١)

كنتُ أظنُّ حتى عهدٍ قريب أن الأمور التي تؤثر بشكل سريع في الآخرين لا تؤثر في شخصي، وقد جربت نفسي مرارا، فلم أكن ألتفت إلى النساء وإن شدَّني جمالهن رغم أنني أحب كل شيء جميل..

لم أكن أقف لمشهورٍ ازدحم الناس عليه، ولا لقيادي في بلدي أو بلاد أُخرى، كنتُ ولا زلتُ أعيشُ حالة من اللامبالاة، أسير على خطٍّ أرسمهُ لنفسي لا أحيدُ عنهُ إلا إذا أردتُ..

كانت تلك اللحظة من اللحظات التي أردتُ أن أنحرفَ فيها عن مساري، كنتُ في الرياض في عملٍ قد انتهيتُ منه، وهي من المرات القلائل جدا في حياتي التي أذهب فيها إلى العاصمة السعودية الجميلة، ولأنني لا أعرف أحدًا فيها كان جل وقتي في فندق (الهيلتون) الذي نزلت في جناحه الرقم (٧٣٧)، وقد أخذ بي الضجر مأخذهُ، قررتُ أن أستمتع قليلا بالمناظر الموجودة خلف الفندق من خلال الجدار الزجاجي، وأقوم بتسجيل ما أراه من منظر أمامي عبر كاميرا الجوال والذي قمتُ بضبطه على (التايم لابس)، وشرعتُ في تسجيل اللقطات، ومن ثم الاستمتاع بالمنظر الصامت، والسيارات المتحركة فيه بسرعة.. كي ينقضي الوقت..

كما رميتُ بين متابعي «السنابشات» سؤالا عن أفضل «شاورما» أجدها في الرياض، وصلتني العديد من الردود، لكنني عندما خرجتُ أوقفت سيارتي عند أقرب محل لمحتُ فيه الشاورما، أكلتُ وعُدت إلى الفندق من جديد، بيد أنني اكتئبت من انتظار الرحلة التي وجدتها بشق الأنفس بعد يومين آيبًا إلى المدينة المنورة، كان عليَّ أن أمضِي الوقت رغمَ أنفي..

كتبتُ في Google كلمة Mall فوجدت أقرب مول هو (غرناطة) ومن ثم (النخيل)، عبث اسم (غرناطة) بوجداني، ذلك أن المسلمون حكموا فيها، ثم إنني كنت على علم بأن غرناطة تعني «الرمان»، تلذذت في مخيلتي بحبَّاته بإضافة القليل من الملح عليه، وعصر نصف «ليمون»..

أظُنُّ أن شُرودًا ما أصابنِي، ونسيتُ أنني على وشكِ الخروج إلى المول، جال خاطري لبرهة في وصف ابن بطوطة لغرناطة، ثم انتبهتُ أنني واقف عند الباب، نزلتُ عن سيارتي الحمراء التي استأجرتها من المطار.. ونحو مول «غرناطة» اتجهتُ.

وصلتُ ولا أدري أين يجبُ أن أوقف سيارتي، ومن أي باب أدخل المول، وأين سيستقر بي المقام أصلا، فلستُ من هواةِ القهوة، ولا مهووسا بعلامةٍ تجارية دون أُخرى، وأُفَضِّل أن أتناول أو أشتري من المتاجر المحلية، سعودية كانت أم باكستانية، كل ما أردته هو أن أتناول «الموكا» في أول «مقهى» تراهُ العين..

بدأتُ أبحث عن مكان مناسب معزول عن الناس، وأثناء تقليبي البصر على العلامات التجارية والمتاجر العالمية في «غرناطة مول»، وجدتني أُفكر في كلمة «الموكا» الإيطالية..

بصري يبحث عن مقهى، وعقلي مشغول بكلمةٍ، وأظنُّ أنني قرأت في كتاب ما عن الكلمة أن أصلها مُنَقْحَرٌ من (المُخا) وهو الميناء الذي كان يصدر منه البُن اليَمَنِي إلى العالم..

بعد أن جُلتُ الدور الأَرضي، اتَّجهتُ إلى الدور العلوي، ولمحتُ من بعيد «ماما بنز كافيه»، قلتُ في نفسي إلى هناك يا (فيصل)..

انتظرتُ خارج المقهى بسبب الإجراءات الاحترازية لفيروس كورونا، وحين

خَرَجَتْ فتاتان من داخل المقهى، أشار إليَّ الموظف بالدخول وقد لاطفني بكلام وترحيب..

دخلتُ متجها إلى آخره، ووجهي على طرفٍ مقابل، حيثُ أنا والجدار، فقد استحيتُ أن أقابل العوائل الجالسة بنظراتي..

طلبتُ (الموكا) مع (ماما بنز الأصلية)، وجلستُ لما يقارب الربع ساعة أحتسيه، قمت بتنظيفِ الطاولة المستديرة وهي عادة دأبتُ عليها، واتجهتُ للخروج..

عند المدخل لمحتُ فتاةً تريدُ أن تحاسب على ما طَلَبتْ من طلباتٍ، قدَّم لها الموظف آلة الدفع، في حين امتدت يدها إلى شنطتها وعادت دون إخراج البطاقة البنكية..

من خلال نظرةٍ عابرةٍ انتبهتُ إلى الخجل البادي على وجهها، توقفتُ قليلا، وأخرجت بطاقتي، ووضعتها على الآلة..

سمعتُ رنين قبول عملية الدفع، ومضيتُ إلى حالِ سبيلي حتى قبل أن تلتفتَ إليَّ الفتاة..

لم أُرد من تصرفي هذا جزاءً ولا شُكورًا، ولا خطر في بَالِي أن أفردَ عضلات أخلاقي أمام فتاةٍ مجهولة..

كل ما في الأمر شعرتُ أنها في موقف حَرج، فأخرجتها من إحراجها... وضِعْتُ بين زحامِ القادمين والذاهبين.. تقدمت بضع خطوات، وسمعت من بين الزحام صوتا:

- مهمد.. مهمد.. أشارت بيدها، وقالت: فضلا قف، اسمعني..

توقفتُ، نظرتُ إليها هذه المرة بتمعُّن وهي قادمة من خلفي على بعد خطواتٍ..

بدأت تحدثني بالإنجليزية، شاكرة ممتنة، وفي ذات الوقتِ عاتبة، في نظراتها ألف استفهام واستفهام، قلتُ لها:

- لا داعي للشكر، ولا الامتنان، لقد انتهى أمر الدفع، بالعافية..
- حسنا، ولكن أُريد أن أُعيد لك المبلغ المدفوع، فضلا لو تعطيني رقم هاتفك حتى أتواصل معك..
- لا داعي لذلك، هدية مني، اقبليها أرجوكِ..

تركتها خلفي وهي في وجوم من هذا الكرم المباغت، ومن الرفض في قبول ما تم دفعهُ.. أَصرَّت على أن أعطيها رقم هاتفي، فأعطيتها ومضيتُ..

... ثم انتبهتُ إلى أمور كثيرة حصلت خلال الدقائق الثلاث الماضية، استعدت صورتها في ذهني، وصوتها باللكنة الأعجمية حين نادتني بمحمد..

وجدت أنها قد وضعت علامة (التِّلكا) وسط جبهتها، ما يعني أنها ليست عربية، وليست بمسلمة..

حاولت استعادة قسمات وجهها في ناظري، تكوَّنت لي صورة غير اعتيادية للوجوه التي رأيتها خلال السنوات الماضية..

فكَّرت في نفسي، إن كانت (التلكا) على جبهتها، غالبا هذا يعني أنها هندوسية، ولكن سحنة وجهها ليس هندوسيا، قلما ترى هندوسيا أبيض البشرة، أكثرهم يميلون إلى السمار..

- هيه، اش فيك؟
- عفوا أخي.

في شرودي الذهني هذا، وأنا أحاول أن أصل إلى جغرافية الوجه الذي رأيته قبل قليل اصطدمتُ بشابٍ أمامي، اعتذرتُ له، وعدتُ أرسم وجهها في مخيلتي من جديد..

... وحدثتُ نفسي: التِّلكا؟ سحنة الوجه؟ العرق الهندوسي؟ البياض؟ سناءُ وجهها الذي للتو انتبهت أنه أنارَ شيئا مُظلِمًا في داخلي منذ سنواتٍ طويلة... لا أعتقد أنها هندوسية، إن لم تكن هندوسية فماذا تفعل (التلكا) على جبهتها، قد تكون هندوسية من كشمير بالتحديد، أو بوذية، أو سيخية.. أيا كانت، أهديتها، وسجلتُ في ذكرياتي الشخصية موقفا جميلا لن أنساهُ..

خرجتُ من المول متجها إلى شارع (محمد علي جناح)، ولقد سعدتُ حين أخذ بي القدر إلى هذا الشارع لأمُرَّ منه متجها إلى الهيلتون، لأن الاسم مرتبط بوجداني بصفتي باكستانيا، إذ أن جناح يعتبر مؤسس باكستان، كما أن مؤسس المملكة العربية السعودية وموحدها هو الملك عبد العزيز رحمهما الله، وأسعدني أن أرى اسمه وقد تم إطلاقه على شارع في العاصمة السعودية.. علمت لاحقا أن هناك شوارع أخرى على اسمه، وعلى اسم شاعر باكستان الوطني (محمد إقبال) في جدة..

كما توجد معالم في باكستان تم تسميتها على مسميات الملوك السعوديين، منهم (سعود آباد) على مسمى الملك سعود، وهو حي في مدينة (كراتشي)، ومدينة (فيصل آباد) على مسمى الملك فيصل رحمهما الله..

... عدتُ إلى فندقي وقد زال من نفسي بعض ما وجدته من قلق واكتئاب.. المجدُ لذلك الوجه البهي، والمصادفة الجميلة..

(٢)

فرشتُ أسناني، أطفأتُ أنوار الغرفة إلا من إضاءة خافتة قادمة من الأباجورة على يسار السرير.. تركتها..

لا أُعتِّم المكان الذي أنا فيه، ليس خوفا، بل لأنني أشعرُ أن الصدر يضيقُ بي، وأنني إن لم أرَ الضوء سأختنق، لا أعرف سر ذلك، ولم أُكلِّف نفسي يوما تتبع الأمر، والبحث فيه..

حاولتُ أن أنام، وضعتُ يدي اليمنى على خدي، شرعتُ في قراءة سورة الملك، ومن ثم انتهيت في غضون دقائق من التسبيح والتحميد والاستغفار، أمرٌ عَلِقْتُ بِهِ منذ أن كان يُلَقِّنِيْ أبي ذلك وأنا طفل..

بدأ خيالي يستعيد الموقف الذي حصل معي في (غرناطة مول)، توقفتُ عند وجه الفتاة كي أصل إلى جنسيتها، وأصلها..

حاولتُ أن أستعيد مواقفي مع النساء خلال أسفاري الدراسية، هل هي من الهنديات اللائي يَسكنَّ في جنوب إفريقيا؟ أم أنها من الباكستانيات غير المسلمات ممن استوطنَّ بريطانيا!!..

حاولت أن أجمع الصورة الكاملة من خلال لكنتها وصوتها ووجهها ما لم أستطع الوصول إليه حتى الآن..

هذه من المرَّات القليلة التي لم أنجح في تحديد جغرافية الفتاة، عادة بما أنني جُلت في بعض بلدان القارة الإفريقية والأوروبية، ومقيم في المدينة وأرى وجوه الناس فيها آتية من كل حدب وصوب، زوَّارًا ومعتمرين، ومُلِمٌّ بما في باكستان من عرقيات، أستطيع أن أحدد جنسيات الآخرين من خلال وجوههم، وأحاديثهم،

ولهجاتهم، ولكن احترتُ هذه المرة جدا..

لقد ضَيَّعَتِ (التلكا) على جبهتها بوصلة تجاربي، وسحنات وجهها التي لا أعتقد أنها هندوسية..

لقد رأيت الكثير من الهندوسيات، ودرستُ مع بعضهن في بريطانيا، كما رأيتهن في ملاهي جنوب إفريقيا، وأسواقها، هذا الوجه ليس هندوسيا، والتلكا عُرف عنها أنها علامة الهندوسية وإن كانت الاعتقادات الأخرى مثل البوذية والسيخية أخذوها عن الهندوسية..

أمضيتُ دقائق وأنا أُقَلِّب في خاطري الوجوه التي عرفتها، واستحضرت مواقفها... ولكني لم أصل إلى جواب..

ضاعت تجربتي ومعرفتي خلف ذلك الوجه الجميل جدا.. تقلبتُ في فراشي، ولا أدري متى داهمني النوم..

(٣)

استيقظت آن أذان الفجر وبي إعياءٌ شديد، فكَّرتُ في أن أصلي حين أستيقظ مجددا، أردت أن أمدَّ يدي إلى المُنبِّه الذي بدا لي في ذلك الوقت أنَّهُ نقيق ضفدع، أو خوار ثور، لقد كان مزعجا كما ينبغي لصوت المُنَبِّه أن يكون، لكي يستفزك، وتستيقظ من نومك العميق..

لاحقا قمت بتغييره ونوَّعتُ أصوات المنبه ما بين صوتِ الآذان، وآيٍ القرآن، كنت بعدها أستيقظ ونفسي هادئة، أردتُ أن أقرأ الرسائل الواردة على هاتفي فور استيقاظي من النوم كما هي عادتي السيئة، بيد أني تركتها هذه المرة..

صليتُ الفجر في أحد مساجد حي الشهداء الذي أقيم فيهِ، لا أذكر اسم المسجد، وعدتُ أدراجي إلى غرفة الفندق، أمسكتُ هاتفي وبدأت أُقلِّب التطبيقات، تويتر، الفيسبوك، انستاغرام، أرد على التعليقات الورادة..

ورأيتُ أيضا الرسائل النصية، وجدتُ رسالة تخص عملية الدفع الآلي التي قمتُ بها بالأمس قد تجاوزت الحد المعقول لطلبية الفرد الواحد، يبدو أن الفتاة لم تكن وحيدة، ثم تذكرتُ أن المبلغ الباقي في بطاقتي لا يكفي لدفع أجرة السيارة لليوم الأخير من وجودي في الرياض، ضحكتُ على سذاجتي، ولكن لم آبه بما فعلت، سأتصل بشقيقي الذي يقف معي في السرَّاء والضرَّاء، وسأطلب منه المبلغ المتبقي، وهذا ما فعلته..

فتحت تطبيق (الواتساب) ووجدت رسالة من رقم هندي، فتحتها، ووجدت فيها بعد التحية والشكر والثناء، مطالبة بحسابي البنكي، ذَيَّلتها برسالة تقدير، طالبا منها أن تنسى كل ذلك، وتقبل مني هدية.. هدية من غريبٍ، إلى غريبة..

وبما أن الرقم هندي، فهذا يعني أنها هندية هندوسية، وبين الباكستانيين والهندوس عدواة بدأت منذ أن استقلَّت باكستان عن الهند في ١٩٤٧م..

وجدتها فرصة لأثبت لها أن الباكستانيين لطفاء، وأن المتطرفين من الهندوس ممن ينفثون السم في آذانِ عامتهم ما هو إلا بُعبُع لإخافتهم، ولأجل كسبِ ودهم في الانتخابات، ولكي تبقى القوة لدى الأكثرية الهندوسية في الهند، ولكيلا يتعاطف عامة الهندوس، مع عامة المسلمين، والبقاء في محيط هندوسي مغلق منطوٍ على نفسه، وإبقاء المسلمين تحت رهابٍ اجتماعي.. استرجعتُ في ذاكرتي شريط ما حَكَتهُ لي جدتي لأمِّي عن دم المسلمين المسفوح أثناء الاستقلال عن الهند.. أردتُ أن أبدأ معها نقاشًا طويلا، ولكني أجَّلتُ ذلك لحينٍ آخر..

- أنا باكستاني، اعتبريها هدية من عدو لكم..
- هههههه، يا لك من عدو لطيف..
- هكذا نحنُ مع الأعداء، فما بالك من موقفنا مع الأصدقاء!!..
- يبدو أنك لا تدرك أن ليس كل الهندوس يعدون الباكستانيين أعداء..
- أعتقدُ أنك منهم..
- صحيح، ربما، ولكن..

استغربتُ من جوابها الذي تقِرُّ فيهِ بما قلتُ لها، ثم من احتمالية الأمر لديها، وأخيرا استدراكها بكلمة «لكن».. لم أسألها أكثر، وخرجتُ من محادثتها، وانشغلتُ بأمرِ ترتيب تذكرة العودة إلى المدينة المنورة، لأتأكد من موعد الرحلة، وإعادة السيارة المؤجَّرة..

(٤)

الثامنة مساء يجب أن أكون في مطار الملك خالد الدولي بالرياض، رحلتي إلى المدينة ستكون التاسعة والنصف، لذلك أعددت العُدَّة، وخرجت قبل الموعد المحدد تحسبا لأي طارئ..

صرتُ أقلب نظراتي في شوارع الرياض التي لم آلفها كثيرا لأنني لا آتي إليها إلا مرات محدودة، لا أعلمُ فيها أحدًا، والذين أعرفهم لم أخبرهم أنني هنا، والذين أخبرتهم لم يَردُّوا على رسائلي..

عشتُ شرودًا ذهنيا وأنا ذاهب إلى المطار، نسيتُ أنه يستلزم عليَّ ملء خزان السيارة بالوقود كما هي من سياسات الشركة التي استأجرت منها، حتى دخلتُ حدود المطار، وأوقفت السيارة في المواقف..

أخبرني العامل الفلبيني الذي بدأ يفحص سيارتي أنني سأدفع غرامة النسيان، بالإضافة إلى مبلغ الوقود الذي لم أقم بتعبئته..

لم يعجبني هذا الأمر، لكني دفعت مكرها، وفي نفسي أنني لن أستأجر مرة أخرى من الشركة رغم أني عميل لديهم منذ أكثر من عشر سنوات..

يحق لهم أن يخصموا مبلغ البنزين، أما مبلغ الغرامة فخِلتُ أنه تعدٍّ على مالي، لكني كنتُ قد وقعتُ على العقد، والاحتجاج الوحيد الذي يمكن تسجيله هو أنني لن أستأجر مرة أخرى منهم..

سحبتُ شنطتي الزرقاء متجها إلى بوابات الدخول، مررتُ بنقاط التفتيش، جلستُ على مقاعد الانتظار أمام البوابة التي أُعلن عنها أنها للذاهبين إلى المدينة

المنورة، وجدت فراغا فشرعت في كتابة تغريدات في موضوع ما...

حددت لأخي الوقت الذي سأصل فيه، وقلت له: سأنتظرك أمام البوابة رقم (٢) بعد الخروج من مطار المدينة.

حسنا، بالسلامة.

الحادية عشر مساء كنتُ أقف أمام البوابة رقم (٢)، وأمامي تقف سيارة (دودج)، أخرجتُ هاتفي، واتصلت بأخي مرتين..

كانَ يقطع الاتصال، ظننتُ أن سيارته قريبة، إلى أن سمعت بوقا من السيارة أمامي، فزعتُ، آخ.. إنه أخي، يا لاستفزازه ومزاحه المعهود معي..

ابتسمتُ، وباركت له شراء السيارة الجديدة، عاتبته على أنه لم يخبرني عنها، فقال لي: أردت أن أفاجئك، قلت له: هذه إلى جانب المفاجأة، مفاجعة أيضا..

ابتسم، ومضيتُ أخبره تفاصيل ما حدث معي في الرياض...

(٥)

شهران مرَّا على عودتي من الرياض، نسيتُ كل شيء إلا ذلك الوجه الجميل والذي كان يعبث في خاطري على حينِ غِرَّة..

أتذكرهُ أحيانا إذا استوقفتني كلمة بليغة أثناء القراءة، أو حين المرور في ازدحام، أو حتى على فراش النوم..

الحقيقة أن هناك أربعة وجوه نسائية لست قادرا على نسيانها، وجه رأيته في (مطار لاهور) في إحدى الرحلات التي كنتُ عائدا فيها من (لاهور) إلى (المدينة المنورة)..

ووجه في مدينة (دربن) في جنوب إفريقيا لفتاة هندية مسلمة، والتي كنتُ أشتري من عندها طعاما بشكل يومي، إذ كنا في نزهة برية، وكانت تعمل إلى جانب أخيها وأختيها مع أبويها في مطعمٍ لهم، لحسن الحظ أنني كلما أتيت لأبتاع طعاما كانت هي التي تصنع لي (البرغر)، وتضعه في الصينية بترتيب وتنسيق جميل إلى جانب الأطعمة الأخرى..

أصبح بيني وبينها كلام من صمتٍ مطبق، أبادلها النظرات والابتسامات دون أية نوايا سيئة بيننا..

ثلاثة أيام بعدها حين هجرنا المكان، لمحتها عن بُعدٍ وأنا في الحافلة، رفعتُ يدي للسلام عليها، كان اللقاءُ وكان الوداع..

ووجهٌ لطفلة حين كنتُ عائدا من (جوهانسبرغ) إلى (جدة) عبر (الخطوط السعودية)، لون الطفلة كان قمحيا، أما عيناها ففيهما اخضرارٌ لم أر مثلهُ في حياتي

قط، والحقيقة أنني كلما أتذكر تلك الطفلة، تَخضَرُّ أفكاري الصَّفرَاء..

ووجه هذه الهندوسية الأخيرة التي جمعتني بها المصادفة في (الرياض)، على الرغم من أن رقم هاتفها كان معي إلا أنني لم أحاول التواصل معها حتى لا تظن أنني أسعى للتعرُّف عليها..

كيف أصفها؟ بل كيف أصف المشاعر التي تنتابني حين يُخيَّل إليَّ وجهها، حاولتُ أن أستذكر أبيات شعر لشعراء من اللغتين العربية والأردية؛ إلا أنني لم أجد في وصفها ما يوفي جمالها، ولا لمعة عينيها، ولا عمق بؤبؤها، ولا خديها المتوردتين، ولا الشفاه التي أودعها الله خاتما للحسن والجمال..

شامة صغيرة قصة حُسْنٍ أخرى تحت شفتها السفلى، سبحان الذي وضع في وجهها كل هذا السناء، كل هذا البهاء...

يبدو أنَّني شُقيت بحسنها وابتُليتُ، بيدَ أني أَعرفُ تماما كيف أُحافظ على هدوئي، وعقلي، وتفكيري، وتوازني...

جمالها رزقٌ؛ لكنه ليس رزقي.. وأرجو ألا يكون معرفتي بها ابتلاء لا أطيقه، وشقاء لا أبتغيهِ...

(٦)

فتَّشتُ رسائلي القديمة على الواتساب والتي تراكمت بسبب رسائل المجموعات الكثيرة التي أنا أحد أعضائها طوعًا أو كرها، من الأصدقاء من سألني وأضاف، ومن الغرباء من أقحمني بلا دعوة، وأنا لا أرد القريب، ولا الغريب..

ضمن مئات الرسائل المُتكدِّسة في الهاتف، وجدتُ رسالة يتيمة من الفتاة التي لا أعرف اسمها حتى الآن..

حديثنا لم يصل إلى مرحلة التعارف، كما أننا انقطعنا خلال الشهرين الماضيين، فلا أنا التفتُّ خلفي لأسأل عنها، ولا هي راسلتني..

- مرحبا فيصل، لدي بعض الاستفسارات إن سمح وقتك.

هذه هي الرسالة التي وجدتها بالانجليزية وقد مضى عليها يومان، دخلتُ واعتذرتُ منها، وأوضحت لها أن تكدس رسائل المجموعات أحيانا يجعلني أصرف النظر عن قراءة الرسائل المباشرة أيضا.

- يمكنك كتابة الاستفسارات، تفضلي.
- عرفتُ من حديثك سابقا أنك باكستاني، لكني رأيتك تلبس الشياب السعودية، هل هذا يعني أنك من المقيمين في السعودية؟
- نعم.
- تجيد العربية؟
- طبعا.

- جميل، عندي عمل جامعي يخص اللغة العربية، وأريد منك أن تساعدني في مَدِّي ببعض المصادر التي أستطيع الاستفادة منها، وتكون عن اللغة العربية، باللغة الإنجليزية.
- حسنا، سأرسل لك بعض الروابط الشبكية التي تفيدك، وسأسعد بالرد على أي استفسار يخص اللغة العربية أو الأدب العربي، بل والأدب الأردي أيضا.
- ممتنة لك جدا، ولكن هل لك صلة بالأدب الأردي أيضا؟
- نعم، بحكم أنها لغتنا الوطنية في باكستان، وميولي الأدبية.

ثم استغربت من معرفتها باسمي، وخَلِصتُ إلى أنه مكتوب في حالة (الواتساب) ومن المؤكد أنها التَقَطَتْهُ من هناك، رحتُ أبحثُ عن اسمها في الحالة، فلم أجد إلا رموزًا..

- ما اسمك؟
- كشمير.
- أوَّاهُ!! جميل جدا، ولكن للمرة الأولى أصادف فتاة اسمها (كشمير)، هل الهندوس يسمون أبناءهم وبناتهم بهذا الاسم؟
- لا، ولكن هكذا هو اسمي، سماني أبي على مسمى كشمير.
- كشمير الحرة، أم المحتلة؟
- ماذا تقصد؟ كشمير هي كشمير، ولا يوجد ما هو حر أو محتل.
- اممم.

بالرغم من أن أسئلة كثيرة ولدت في خاطري، إلا أنني لم أُخرج البركان الذي ثار في داخلي بسبب هذا الاسم..

هي هندوسية، واسمها كشمير، والهندوس صلتهم بكشمير ليست تلك التي تجعلهم يفتخرون بما يفعلونه في كشمير المحتلة، يا ترى لم سماها والدها على مسمى كشمير؟؟

ترك عشرات الآلاف من الأسماء الهندوسية ولم ينتخب إلا اسما يثير العواصف لدى النظام الهندوسي السياسي!!.. أجَّلتُ الحديث معها حول هذا الموضوع، اكتفيتُ بالقول لها:

- كشميرٌ أنتِ، وما تدرين شيئا عن كشمير؟! أم أن التَّغافل السياسي الهندوسي المعهود يسري فيكِ أيضًا...
- ليس تغافلا بقدر ما هو استفزاز لباكستاني، وأرسلت مع هذا الرد أيقونة القرد الذي يضع يديه على فمه..
- أوه، يعني أنَّكِ مُلمَّةٌ بالأمر كما ينبغي.. (مع أيقونة الابتسامة العريضة).
- اعتبرني أنَّنِي في خِضم السجال الكشميري.
- جيِّدٌ أنكِ اعترفتِ بأنها معركة.

(٧)

أرسلتُ إليها بعض المواقع الشبكية التي قد تُعينها في كتابتها عن اللغة العربية، أوضحت لي أنها تدرس في جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن في كلية الحاسب، وتخصصها (علوم حاسبات)، واستفسرت منها عن صلتها باللغة العربية، فشتان ما بين علوم الحاسبات واللغة العربية، ما بين جانب تقني، ونقيضه الأدبي، فَذَكرَت أنها تدرس مادتين إجباريتين، وهما: التحرير الكتابي والتدريبات اللغوية.

- الروابط التي أرسلتَها لم أستفد منها كثيرا، هل بإمكانك إرسال روابط أو كتب أخرى؟
- هل يمكنك تحديد واجبك البحثي؟
- ممم، نعم، أريد أن أكتب عن كتاب، أو مفردات من اللغتين الإنجليزية أو الأردية لها صلة باللغة العربية..
- أووه، يدخل هذا في مادة التحرير الكتابي إذا.
- بالضبط.
- لا بأس، أُحيلك إلى بعض المصادر الإنجليزية والأردية، وسأرسل لك حالا بعض الملفات التي تساعدك، بعضها عليك أن تبحثيها في الشبكة العنكبوتية، مثلا: ابحثي عن كتاب Europe speaks Arabic هذا الكتاب باللغة الإنجليزية، من مؤلفات الدكتور ف. عبد الرحيم، وقد جمع فيها الكلمات الإنجليزية ذات الأصل العربي، كتاب جميل إن كنتِ تحبين الأدب بشكل عام..

كذلك عليك أن تتصفحي كتاب أو بالأحرى قاموس اللغة الأردية، اسمه: (فرهنگِ آصِفيَّه)، ستجدين فيه بعض المفردات الأردية ذات الأصل العربي.. الأول كتاب ممتع بحق، والثاني قاموس فيهِ ما فيهِ من المفردات وأصولها وجذورها وطريقة نطقها، وإن لم تجدي الكتاب الأول سأصور لك بعض المفردات منها، وأعطيك بيانات الكتاب لإدراجها كمصدر.. ثم أرسلت لها مجلدات القاموس، وبعض الملفات الأخرى التي كانت لدي في إرشيف الحاسوب.

- ممتنة جدا، فقد وجَّهتَنِي فعليا نحو ما كنتُ أريده، شكرا جزيلا.

(٨)

عادت تُحدِّثُني بعد أيَّام وهي سعيدة، وذكرت لي أن المشرفة على المادة أعجبها البحث، وأنها تطلب الكتاب الذي تطرقت له في واجبها Europe speaks Arabic ذكرتُ لها أنني أمتلك نسخة وحيدة، ولكني سأحاول شراء نسخة جديدة وإرسالها إليك، والكتاب غير موجود بالسعودية؛ لذا عليها أن تنتظر..

وجدتُ بعض فراغٍ، فسألتها عن الجامعة التي تدرس بها، وسألتها عددا من الأسئلة الأخرى، منها عن تجربتها في السعودية..

كتبت أنها قريبة من السعوديات بحكم دراستها، ولديها علاقات اجتماعية طيبة معهن، كما سَرَدَت لي حديثها عن جامعة الأميرة نورة، كانت سعيدة وهي تتحدث عنها، وعن تجربتها في السعودية، وقد أَسهَبَت في الحديث..

ذَكرَتْ أن الجامعة مدينة متكاملة، وهي عبارة عن محطات مرقمة من A1 إلى A10 ومحطات خاصة بالعمادة والنادي، وأتذكر أنها كتبت عن F1 وكذلك S1 أو S2 ويبدو أنها كانت تصف المحطات والفصول الدراسية التي ترتادها.. أَضافت أنها تذهب إلى النادي الطلابي لكلية الحاسب الموجود في محطة كلية الحاسب A3 يوميا..

وَصَفَتِ الفصول الدراسية وأوضَحَت أنها مرقمة، وليست لها أسماء، مثلا ممر ذي الرقم (٢٠٠)، تستضيف الفصول في هذا الممر من (٢٠١) إلى (٢٠٩) دروس الرياضيات، ومن ثم ممر رقم (٤٠٠) يستضيف الفصول المتعلقة بالحاسب العملي، والممر (٦٠٠) يستضيف فصول نهاية اليوم التعليمي..

لاستذكار الدروس ومراجعتها كَتَبَتْ أنها تذهب إلى مكتبة الكلية، مكان هادئ، فيها بعض الكتب العامة، والكثير من الكتب التي تتعلق بمشاريع تخرج

طالبات كلية الحاسب من أجل مساعدتهن على استخراج أفكار مشاريع التخرج..

كما ذكرت لي ضمن سردها لمعالم الجامعة أنها تجتمع مع البنات عند ساعة محطة A8 خصوصا عندما يهطل المطر، بنات الجامعة تُسمين الساعة Big Ben وتُعتبر الساعة سمة الجامعة المميزة.. قلت لها حين ذكرت لي ذاك:

- لماذا لا يسمونها ساعة مكة؟ هي أمُّ الساعات، كما أن مكة أم القرى؟؟

طرحت عليها السؤال مدركا أنها لا تملك الإجابة، ولكن في نفسي أننا دائما نُبجِّل الأشياء الغربية.. لماذا؟

لماذا حين نرى الضباب في بلداننا نُشبِّهُهُ بضباب لندن؟ أضباب لندن أجمل من ضباب مرتفعات الجنوب في المملكة؟ أو ضباب (مَرِيْ) في باكستان، أو قِمَمِهَا في الشمال؟

لماذا نشبه مدننا الجميلة ببعض المدن الغربية؟ أليست لدينا في الشرق مدنا تُضرب بها الأمثال؟ تحزنني المقارنة، وتُشعرني كأننا في بلداننا الإسلامية لا نملك شيئا مما يفرحُ الخاطر، ويسر النظر..

خرجتُ من شرودي، وعدت أقرأ رسائلها، وجدتها كتبت عن اجتماع البنات أيضا للتَّفسُّح في المساحة الخضراء الموجودة في محطة A9، أما محطة A4 فَعَدَّدَتهَا ضمن المحطات التي تتجه أغلب بنات الجامعة إليها، ذلك أنها تحوي مرافق خدمية، مثل المقاهي، والمطاعم، والصيدلية، وصالون نسائي صغير.. وصفت لي كليتها بتفاصيل شبه دقيقة وأنا لا أعرف من الجامعة إلا اسمها..

(٩)

قلتُ لها:

- ماذا عن الفتيات السعوديات، وعن تجربتك معهن؟
- طَيِّبات وودوات للغاية معي، أخجل أحيانا من كرمهن، ولطف تعاملهن، حتى أنني إذا أعجبني شيء بِتُّ لا أسأل عنه منهن خشية أن تجلبن لي ذلك، طبعا أتحدَّث عن الصديقات المقربات..
- صحيح، بشكل عام في السعوديين كرمٌ جم، يقف السعودي معك حتى وإن لم تطلب منه ذلك، الرجل البدوي بشكل عام شهم الطبع، لو شعر بك، اعلم أنَّكَ في مأمن..
- ماذا عن المشاكل التي نسمعها عما يُسمَّى الكفيل؟
- شيء طبيعي أن الناس ما دام فيهم الصالح والطالح بصفة عامة، فإن المجتمع السعودي أيضا ما بين صالح كثير، وقليل طالح، وهذه المشاكل تظهر بشكل عام بسبب حزازات النفوس المشتركة ما بين الكفيل والمكفول، وأظن أن الأمور ستتغير، خصوصا وأن الأنظمة تم تحديثها مؤخرا فيما يخص العمل والعمال، بشكل عام المجتمع السعودي مجتمع كريم، يقف الفرد منه معك في السراء والضراء دون مَنٍّ.. أذكر لك تجربة مررت بها للمقارنة، كنا في بريطانيا في كلية (Burnley) في فصل تعليم اللغة الإنجليزية، احتفينا بأحد المشرفين على البرنامج التعليمي بيوم ميلاده، كان باكستانيا ودودا يقف معنا في تسوية أمور الكلية، أَحضَرَت إحدى المعلمات البريطانيات (كعكة)، وأحضر غيرها أيضا طعاما، بعد نهاية الاحتفال كلنا كنا نعلم عن تلك الكعكة أنها من

طرف (جوانا) لتلميحها المتكرر أنها هي من جلبته، أما هنا يدعوك السُّعودي على المُفطَّح وما هو أكبر منه، ولا يمن عليك، تجاربي الشخصية مع السعوديين كثيرة على المستوى المجتمعي، وأعيشُ بينهم..

- ما هو المُفطَّح؟ أرادت أن تَستَعلِم عَن المفردة التي ذكرت لها للتو..

- أكلة شهيرة بين السُّعودِيين وبعض الدول العربية، وتُقدَّم في المناسبات، وهي ذبيحة توضع فوق طبق كبير من الأرز، مع إضافة البهارات المعروفة بين العرب بالطبع..

- يجب عليَّ أن أعرف أكثر عن المجتمع السعودي، تشدُّني مثل هذه الأحاديث، والتي أعرف فيها عن الثقافة أكثر..

- نعم، من المفتَرض ما دُمتِ تعيشين هنا عليكِ أن تعرفي عن هذا البلد، لأنه بشكل عام يُساء إليه في شبه القارة الهندية، لعدم وجود جسور لغوية وثقافية إلا ما يصل عبر الأخبار والتي قد تكون مُسيَّسة ومُمَنهَجة.. والحقيقة أن في بلدك طبقة تتعرض حتى لمقدَّساتِ المسلمين الحرمين الشريفين وتقول أنَّ للهندوسية حق عليهما..

- ما تقولُه كلامٌ خطير..

- لستُ من يقول، هذه أدبيات هندوسية، كتبكم، وأحيانا إعلامكم يسيء للمسلمين والسعودية في هذا الجانب.

- سأتحدث معك عن هذا لاحقا، حاليا أخبرني عن الثقافة السعودية وبعض جوانبها..

- يمكنك أن تتعلمي من الفتيات السعوديات أكثر، ولكن قد أستطيع أن أخبرك عن (السدو) مثلا، فهو نوع من النسيج الذي يتم تطريزه أفقيا، يصنع منه أهل البادية الخيام أو بيوت الشعر، وكذلك الأغطية والوسائد والسجاد المستخدم في المنازل الريفية..

يمكن تشبيهه بجانب ثقافي عندنا في باكستان وهو (الأجرك) في الثقافة السندية يغلب عليه اللون الأحمر مع ألوان قوس قزح الغامقة ويطبع عادة على القماش ولا يطرز، و(السجرك) في الثقافة البنجابية في جنوب إقليم بنجاب يمتاز باللون الأزرق، الأجرك والسجرك هما كلمتان منقحرتان من اللغة العربية من اللون (الأزرق)، وهذا الأثر اللغوي في الثقافة السندية والبنجابية بسبب قدوم محمد بن القاسم الثقفي لفتح الهند..

دعيني أقرِّب لك أكثر.. السدو العربي شبيه في الحياكة وليس في الشكل بالتطريز الكشميري، ولكن استخدامهما يختلف، فالأول للأثاث المنزلي، والثاني في الشالات بشكل عام والملابس، وهناك الكثير الكثير من الجوانب في الثقافة السعودية ستعرفين عنها أكثر إذا ما سألتِ صديقاتك السعوديات، وكذلك بالبحث في الشبكة العنكبوتية..

(١٠)

لاحظتُ أننا لم نتعرف على بعضنا، جل أحاديثنا عامة عابرة إما عن التعليم أو الثقافة، أصبح لدي فضول حيال التعرف عليها أكثر..

يهمني أن أعرف عنها، وعن عائلتها، خصوصا وأنني لاحظت بعض الغرابة سواء من حالتها التي لم أَستَشِفَّهَا أكثر، أو من اسمها، أو إجاباتها المُرتَبِكة..

كما أنها حين ذَكَرَتْ لي أنها قريبة من السِّجال الكشميري استنتجت أن لديها الكثير لتقول، لكنها لا زالت مترددة بعض الشيء لعدم ثقتها في غريبٍ، ومن باكستان، فليس من المنطقي لدى حكومتها الهندوسية، أن يتحدث باكستاني مع هندية عن كشمير، أو حتى أن تكون بينهما علاقة، ذلك أمرٌ يزرعُ الريبة والشك بين المخابرات الهندية تجاه الفتاة، وقد يضعها موضع الحرج..

كان هذا التفكير من جانبي، والله أعلم عن موقفها مما أفكر فيه، كل ما فعلته هو أنني أعطيتها رقمي السعودي، وأكدتُ عليها أن تراسلني من هذا الرقم، وليس الرقم الباكستاني، خوفا عليها من الهواجس التي وردت في خاطري حيالها..

(١١)

تَجَاهَلت الفتاة جميع الأسئلة التي طرَحتُهَا رغبة مني في معرفتها، ومعرفة عائلتها، بالمقابل لم تسألني هي عن ذاتي، بل وجدتُ بعد أيام أنها قامت بحظرِي على تطبيق (الواتساب)، ما جعلني أستغرب من تصرفها، رغم أنه لم يحدث بيني وبينها ما يستدعي ذلك..

حاولت أن أربط بين أجوبتها وتصرفاتها المبعثرة معي، خِلتُ أَنها ترسم الحقيقة ثم تمحوها بالممحاة، أو موج يجرِي ويهدمُ ما بُنِي على رِمال الشَّاطئ، أو حصاةٌ تُرمى في مياهٍ ساكنة، تُحدِث بعض التَّمَوُّج فيها، ثم تعودُ كما كانت.. كأن شيئا لم يكن..

حاولتُ أن أجد تفسيرا لتخبطها واضطرابها تجاهي، التقدم خطوة، ومن ثم التقهقر خطواتٍ كثيرة، ولقد زاد فضولي تجاهها لأني علِقتُ بوجهها الآسر..

وفي ذات الوقت كنتُ أُحذِّر نفسي من الانجراف خلف الوجوه الجميلة، لأن المرء دائما ما يدفع ثمن ذلك غاليا، فليس من الضروري أن يكون الوجه المشرق عاكسا لفكر نَيِّر، قد يكونُ خلف ذاك النور، ظلام فكري أو مُجتَمَعِيٌّ حالكٌ..

(١٢)

بقيتُ مُضطربا لأشهر متتابِعة، فليس من المنطقي ما قامت به الفتاة، وكأنِّي بالشوك يوخزُ داخلي، ونياط قلبي تَتَمزَّق..

وصل بي الأمر أحيانا إلى الإعياء من شدة التفكير فيها، والهروب من ضجيج المدينة إلى الهدوء والسكينة في شِعب من شعاب جبل أُحدٍ، أقضي وقتا فيه، أتأمل ألوان الحجارة، وتعرجاتها، صلابتها، وملاستها، أفرِّق فيها بين لون ولون، وأجمعُ المُدبَّبَة ونقيضها، وأحجامها المختلفة..

وكنتُ في أحايين كثيرة أتجهُ للمسجد النبوي، أصلي ركعتين في رياض الجنة، ثم أخرج من بابِ البقيع، وأجلسُ أمامه في السَّاحة، على يميني القبة الخضراء، قبال القبلة، أدعو الله، ثم أقرأ في نفسي القرآن..

وحين أفرغ من مناجاة رب العالمين أبدأ في التحملق في وجوهِ النَّاس، أقرأ فيها، وأعلم ما كنتُ أقرأ، لغة كنتُ أفهمها، وأستوعبها..

كنتُ أرى الوجوه السعيدة، والأعين الحزينة، أَستَشِفُّ من قَسمَات وجوه الناس أصولهم، ومن أيديهم ماذا قد يكون عملهم، ومن ملابسهم أحوالهم المادية..

لماذا كنتُ أفعل ذلك؟

كنتُ أريدُ أن يضيع عني وجهها في زحمةِ الحياة، ولكن هيهات..

(١٣)

كشمير.. هذا الاسم لم أكن أعرفُ معناه، إلا أنَّ شغفي بذلك الوجه الصبيح جعلني أُقِلِّبُ حتى الكتب السنسكريتية مستعينا بمن يعرفها لمعرفة معناه..

وجدت أن الأوجه التي ذُكرت في تسمية كشمير لا تخرج عن أسطوريات، منوطة بشخصيات هندوسية، أما الرواية المتداولة شعبيا فإن الاسم يعني الأرض الجافة، من الأصل السنسكريتي (ك) ويعني الماء، وكلمة (شِمِيْرَا) وتعني الجفاف..

بالنسبة إلى وجهها، وكشمير نفسها فإن هذا الاسم لا يليق بهما، بل على العكس من ذلك كانت الفتاة آية من النضرة والحسن، وكشمير أجمل بلاد الله قاطبة..

خُيَّل إليَّ أن هذا الاسم بمعناه الشعبي هذا أيضا فيه اضطرابٌ مثل اضطراب الفتاة معي..

كتب التراث العربية أيضا ذكرت كشمير ابتداءً من كتاب فتوح البلدان للبلاذري الذي توفي في ٢٧٩هـ، وانتهاء بالقنوجي المتوفى في ١٣٠٧هـفي كتابه لقطة العجلان، لكنها ذكرتها باملاء (قِشمير) ولم تتطرق إلى معناه..

لقد شغلني هذا الاسم حتى جعلت رسالتي البحثية عن كشمير، كل هذا من جنايات الوجه الذي رأيته مصادفة في الرياض..

آهٍ أيتها الآنسة كشمير!

لقد بعثرَ وجهكِ الجميل كل شيءٍ في حياتي، أفكاري، واستقامتي، وهدوئي، واتزاني، لم أعد أفكر إلا فيكِ..

وقد انحرفتُ عن مساري الذي حددتهُ لنفسي..

لعنتُ الحب في حياتي لأنه لم يكُن كما أردت، وطلَّقتهُ بالثلاث البائن، حتى لم تعد الوجوه الصبيحة، ولا الأجساد الجميلة تأسرني..

ولكن... عادَ إليَّ من أوسع أبوابه، وزَرَعَ الاضطراب في داخلي..

ولا تسألي عن اتزاني الذي ذهب أدراج الرياح، وحل محلُّه الهَوجُ، التغيرات التي أصابتني كانت محدودة حتى شخصيتي، لم أُبدِ البركان الثائر في داخلي لأحد من حولي، كنتُ أُصارِعُ وحدي، سكوتي أصبح هو الغالب عَلَيَّ..

بدأت أُمِّي تتساءل عن صمتي، عن هذا التحول في شخصيتي..

كنتُ أقولُ لها أنني مشغول بأمر رسوم الإقامة التي أصبحتُ أحمل همَّها الكبير.. كانت تنظرُ إليَّ شزرًا.. أو أحيانا عن عُرْضٍ.. وكأنها تقولُ لي: عليَّ يا بُنَيَّ؟!...

أُمِّي باللهِ كيف أُخبِرِكِ أَنني غريقٌ؟

وأَنني لم أعد أعرف السباحة؟!

كنتُ أقولُ هذا في نفسي، ثم أقومُ عنها وقد قبَّلتُ قدميها، وأنا حين أنزل لتقبيلهما، أَرتفعُ في ذاتي كثيرًا..

(١٤)

حاولتُ أن أنسى الفتاة، جَرَّبْتُ أن أختلط مع النَّاس، أَن أَخرج من الانعزال والانطواء..

صرتُ أحضُر فعاليات نادي المدينة المنورة الأدبي التي قلَّما كنتُ أحضرها، وكنتُ أسعى لأن أُركِّز على ما يقولُه المحاضرون، ولكن حتى الشعر الجميل لشاعر لم يعُد يهزُّني في قاعة النادي، ولا الفكرة التي يُلقيه الضيفُ المثقف أو المُفكِّر..

صوتُ التصفيق لم أكن أسمعه..

في ضجيج الأيادي تلك كنت أضيعُ في وجهها.. عينيها.. تلك الغمازة على خدها الأيسر.. الشَّامةُ تحت شفتها السُّفلَى.. الوجهُ النَّيِّر..

كنتُ بعد أن أَخرج من النادي الأدبي أتجهُ إلى مكتبةِ جرير الواقعة إلى جانب النادي، أجولُ في نواحيها، أطالع آخر المعروضات، وأجولُ في القسم الأرضي ما بين الجوالات والأجهزة الحاسوبية، والطابعات، ثم قسم الأدوات المكتبية..

...ثم أرتقي الدور الأول، وأتجهُ إلى قسم الكتب، أتصفح الجديدة والقديمة، وأسأل الموظف عما استجد..

ثم إذا أعجبني كتاب اشتريتهُ، أو كنتُ ألصق ملاحظة عابرة عن الكتاب للقارئ المجهول بالنسبة لي والذي سيشتري الكتاب على ورقة ملاحظات صفراء..

كنتُ أفعلُ ذلك خِلسة حتى لا ينتبه الموظف إلى ما أَفعلهُ، واستنادا إلى هذه الفكرة كم من المرات فكَّرتُ عند كُلِّ سفر أن أقوم بتخصيصِ كتابٍ، وأهديهِ إلى مسافرٍ عابرٍ في المطار أرى فيه حب القراءة، وأطلب منه أن يدرج اسمهُ وحساب

(تويتر) في جدول مُرفقٍ، ثم يهديه لأي مسافر آخر يرى أنه قارئ، حتى يظل الكتاب مسافرًا بين المسافرين، ينتقل من بلد إلى بلد، يُنير الأفكار.. ولكن لم أقُم بهذه الخطوة حتى الآن..

انتهيتُ من زيارتي للمكتبة..

وسأمضي -كما أصبحت عادتي الأسبوعية- بعض الوقت في المسجد المجاور لمكتبة جرير، وأيُّ مسجدٍ... مسجدُ القبلتين..

كنتُ أذهب إليه، أُصلِّي ركعتين، وأتوجهُ إلى القبلتين، الأولى والثانية، أقرأ ما سُطِّر على الجدار..

أدورُ في المسجد..

أجلس في أقصى يساره..

أنظر إلى المزخرفات فيه، سواء على الجدران، أو الفُرش، أو رفوف المصاحف الخشبية..

حفظتُ المسجد وكل عُنصرٍ فيه..

كذلك الألوان..

وحتى وجوه العاملين في المسجد، حُرَّاس الأبواب، وعُمَّال النظافة..

(١٥)

كدتُ أفقد الأمل في التواصل معها..

كسرت فناجين القهوة مرات متعددة كي أُسيطر على نفسي من العجز الذي أخذ بي كل مأخذ، ومنعني من الوصول إليها، حتى أنني فكرت في أن أستعين بأصدقائي في كشمير المحتلة لأصل إلى أي رقم آخر لها..

أسألها..

أتطمأن عليها..

وأعرف سبب غيابها المفاجئ بعد أن كانت حريصة على أن تكون بالقرب مني، تسألني عن دراستها، وتستشيرني في بعض أمورها..

استرجعتُ آخر ما تم بيني وبينها من محادثات مرات وكرات، وقرأت، وقمتُ بتحليلِ مُفرداتي مفردة مفردة، عَلِّي قُمتُ بالإساءة إليها دون قصد، أو لمَّحتُ لأمر دون إدراك، إلا أنَّني لم أجد من ذلك شيء، وهذا ما كان يجعلني أشعرُ بالأسى أكثر..

العجز الذي يُسيطر عليك حين تريد أن تصل إلى مبتغاك أمرٌ مجهدٌ، ويستنزف قواك العقلية، ويجعلك تائها حيرانا في متاهاتِ أفكارك، ما لك مخرجٌ إلا المُبتَغى، ولا مَصرِفٌ إلا المُنى، ولا مَنفذٌ للعودة إلى حياتك الطبيعية إلا ما اشتهيتَ..

كنتُ في نِزال مستمر..

مثل مُكافِحِ شرسٍ..

خِلتُ أَنني في ميدان القتال الممتد امتداد البصر، وخصمي هو أنا...

(١٦)

نمتُ ذات ليلة وقد بِعتُ سفن الحُب وأشرعتها، مثل البحَّار الذي صارعَ الأمواج العاتية، وتيَّقن أنها أقوى وأكبر من إرادته الفولاذية، واستسلمَ ينتظر العاقبة الأليمة لحياته..

تيقنت أن الهُيَام الذي أَشعُرُه وهمٌ، وأَنَّ الأشهر السالفة التي أمضيتها في الشَّغفِ من طرفٍ واحد أكبر غلطة ارتكبتها في عمري، وخَلِصتُ إلى أَنَّ عليَّ العودة من جَديدٍ إلى أعمالي الاعتيادية، والتركيز في أبحاثي، وأعمالي الأخرى..

سفري في هذا الحب خِلتُهُ مثل موجٍ غاضبٍ يشتدُّ، ويرتطم بالشَّاطئ، ويعودُ إلى البحر بعد أن أدمى جبينه.. أو زَوبعة قَوِيت وسط بحرٍ، أو إعصار ارتطم بقرية ساحلية هادئة، وخلَّفت رُكاما وحُطاما..

استيقظتُ الرابعة صباحا لصلاة الفجر، كنتُ وضعتُ هاتِفي على الصامت مثل فمي المُطبق، رأيته وفيه ما يقارب ٣٧ إشعارا لمكالمات مفقودة، فجعني الأمر..

كان رقما سعوديا غير مسجل في قائمة أرقامي، مكالمات فائتة على الهاتف مباشرة، وبعضها على تطبيق الواتساب..

يا فتَّاح..

عسى الأمر خير، من ذا يجرؤ على مثل هذه الاتصالات في هذا الوقت المتأخر من الليل، هواجس عديدة جالت في خاطري، جميع من تقدم بهم العمر في عائلتنا مروا بناظري، ولكني فكرت أن الأمر لو كان وفاة أحدهم لكانت الاشعارات من رقم مسجل لدي..

ولدي عقدة من الأرقام الغريبة التي لا أسجلها، غالبا لا أقوم بالرد عليها إلا فيما ندر، إذا صادفني اتصال من رقم غريب أستشير قلبي، إذا ما ارتاح للرقم... رفعته، وإلا تركته، وإن عاود بي الاتصال أكثر من مرتين تحدثتُ معهُ...

في خضم هذه الخواطر قررت الاتصال بالرقم.. قلت بصوتي النائم:

- مرحبا.. من المتصل؟!..
- قالت بالأردية بلهجتها الكشميرية: أنا كشمير..
- قلبي دق مع هذا الاسم كثيرا... أنتِ، أخيرا... اتصلتِ بي... يا لحظي السعيد، يا لفجر باسم.. يا لشمسِ هذا اليوم الذي تشرق متراقصة على أَنغامِ أفراحي...

ثم فجأةً استشعرتُ أنَّها قَست علي في الأشهر الماضية قساوة كل صلبٍ مُمكن أن يرد في خاطرك.. أو أشد، غضبتُ، وصرختُ، وبكيتُ، وفرحتُ، كل هذه المشاعر برزت داخلي فجأة إلا أنني كتمتها كما يكتم المَحَّار لؤلؤه، قلت باتزانٍ وفي قلبي ألفُ بركان وبركان:

- أهلا كشميرُ، كيف حالك؟
- أنا لستُ بخير الآن، أتصلتُ اليوم بك مراتٍ كثيرة، ولم أجد منك ردا..
- كنتُ نائما وهاتفي في وضع الصَّامت..
- أوه، أنا في المدينة المنورة..
- ماذا؟
- أنا في المدينة، وجئتُ فجأة، أَعرفُ أنني لم أخبركَ بشيء، ولكنني ما جئتُ إلى المدينة إلا من أجلك، صدقني..

كلماتها هذه أصبحت في مخيلتي مثل الأحرف المتقاطعة التي يجب إيصالها ببعضها لتصبح كلمة مفهومة، كشمير.. المدينة.. فجأة.. من أجلك.. حاولتُ الاستيعاب على ألا يكون هذا الاتصال الغريب خديعة منها مثل غرابة تصرفاتها معي..

- ألو..
- نعم، نعم أنا معك..
- هل تستطيع أن تأتي إلى المطار؟
- آآآ... نعم أكيد..
- هناك بوابة رقم خمسة، رأيتُ الناس يخرجون منها، هل أقفُ خارجها؟
- لا لا.. ابقي في ساحة المطار الداخلية، هناكَ كراسٍ بالتأكيد ستكون فارغة، أمام بوابة الوصول الداخلي رقم (٥) من الداخل هناك آلة صراف لبنك أعتقد أنه الإنماء، ابحثي عن أي كرسي فارغ في ذلك الجزء من الساحة واجلسي، سآتي إليك خلال نصف ساعة تقريبا...

قُلتُ لها، وعُدتُ إلى شرودي الذهني مع تساؤلات بدأت تعصفُ في داخلي، يا للفرحة لأنها أتت من أجلي، ويا للمصيبة لأني لم أستطع حتى الآن أُقرِّر كيف أتصرف مع هذه المفاجأة من جهة، والفجيعة من جهةٍ أُخرى.. كيف أستقبلها؟ إلى أينَ سأذهبُ بها؟ هل أخبر أمي عنها؟..

تذكَّرتُ فجأة أنها غير مسلمة، غير المصائب الأخرى هذه من النَّوازل، خِلتُ أنَّ جبلا سقط عليَّ عند هذه النقطة..

لا أعرفها إلا من خلال المحادثات، غابت عني لأشهر، ثم عادت إليَّ ونزلت عليَّ كالصَّاعقة، جاءت إلى المدينة، وتنتظرني في المطار، وتريد مني أن أُخرجها.. احترتُ مثل هذه الحيرة للمرة الأولى في حياتي..

ما الذي ألبسه؟ أول ثوب مددت يدي إليهِ لبستُهُ، أتعطَّر بـ(Burberry) أو بـ(Herrera)!! قضيتُ ثوانٍ في التفكير ثم تعطَّرتُ بأحدهما، فيما رشيت سيارتي بالآخر، وانطلقتُ نحو المطار..

قضيتُ الطريق كله في حلِّ معضلة عدمِ إسلامها، من سابع المستحيلات أن أقوم بإدخالها حدود المدينة، حُبِّي لها في جانب، وحبِّي للمدينة له جانب آخر، وهو أهم الجانبين وإن كانت (كشمير) من كانت..

ضميري لا زال حيًّا والميثاق الأخلاقي الذي بيني وبين الحكومة السعودية من خلال الإقامة أمرٌ له عندي اعتبارٌ..

قرَّرتُ أن أسمع ما لديها، ثم أُفكِّرُ في كيفية التصرَّف معها دون أن أُشعرها بأي أمرٍ غير لائق..

أوقفتُ سيَّارتِي في محطة في الدائري المؤدي إلى مطار المدينة على شارع الملك عبد العزيز..

اشتريتُ بعض العصائر والشطائر من محل مجاور، لم أكن أستطيع فعل أكثر من هذا من أجلها في هذا الوقت..

وانطلقتُ مجددا نحو المطار.. قلبي كلما يقترب منها بدأ يدق، حتى أنني بِتُّ أسمع دقاته حين مررتُ بمنطقة خاوية من الناس، والأصوات..

سماءٌ صافيةٌ ونجومٌ، ولا صوت إلا صوتُ القلب..

كيف ألتقي بها؟

بل كيف أعترف لها أنها أخذت بِلُبِّي؟

وهل أصلا عليَّ الاعتراف بذلك؟

صرتُ أحاور نفسي، أوزن الأمور والألفاظ التي سأخاطبها بها...

أشغلتُ نفسي كثيرا..

ثم استسلمتُ..

وتركتُ كل شيء للعفوية...

لا تخطيط..

لا كلمات..

لا اعتراف..

لا شيء..

سأسلم عليها، سأحتفي بقدومها، سأفرح بالتأكيد..

سأسألها عما إذا كانت تريد أن تأكل غير ما جلبتُ لها.. ثم سأسمع منها لماذا قَدِمتْ؟ وكيف أستطيع أن أخدمها؟.. وفي نهاية الأمر سأعاتبها أنها حظرتني في تطبيق الواتساب، ثم فجعتني بقدومها، والحديث معي مباشرة، وجها لوجه..

... كشميرُ، يا لجرأتك..

(١٧)

أوقفتُ سيَّارتي في موقف المطار، عطَّرتها من جديد، وعطرت نفسي، ثم خرجت متجها إلى البوابة رقم (٥) القريبة من المواقف، دخلتُ، لمحتها عن بُعد تُقَلِّبُ النظر في هاتفها، أول ما لفتني فيها أنها لبست العباءة، وخيرًا فعلت، لم يكن عليها أن تأتي بملابسها الاعتيادية كما رأيتها في الرياض..

الله.. وجهها البريء، كأنه وجه طفلةٍ تُقسم لك أنها لم تأكل (النوتيلا) الموجودة في الثلاجة، لكنها في الحقيقة أكلت النصف منها، وفمها لا زال يشهد بأنه مُحلًّى بها، وقد عادت للتو من مهمتها الشقية تلك، شيء من الطفولة، كثيرٌ من الأنوثة..

كانت (كشمير) المتوشحة في سواد العباءة أجمل منها وهي في ملابس اعتيادية ترتديها، أردت أن أتغزل فيها ببيت شعر من اللغة الأردية، استرجعتُ عددا من الأبيات التي يحتفي فيها الشاعر بالضيف، وفي ذات الوقت يصف جماله، ويستشعر قربه.. ولكني تركتُ ذلك..

اقتربتُ منها، ألقيتُ السلام على خجل، وردَّت هي السلام في حياءٍ أنثوي، قدَّمتُ لها الماء، والعصير، كما أنني أخذت رشفات من العبوة التي كانت بيدي، احتفيت بكلمات أظهرتُ فيها سروري بقدومها، ومازحتها بأنكِ في مأمنٍ تام في كنفِ باكستاني رغم أنك هندية، كانت نظراتها وهي تبتسم، فاتنةٌ، قاتلة..

أخذتُ حقيبتها، واتجهتُ إلى السيارة، وذكرتُ لها أننا سنتحدث في السيارة لبرهة، ثم نقرر وجهتنا التالية، مشت خلفي حتى جلسنا في السيارة، ارتحتُ أنني جئتُ بعيدا عن أعيُنِ الناس، وقلت لها:

- أخبريني ما الذي أتى بك إلى المدينة المنورة وحدك، ما هذه الجرأة؟
- أعرفُ أنني أخطأت في هذا الأمر، ولكني لم أجد فرصة أفضل من هذه، آتي إليك لأوضح لك كل شيء، إضافة إلى أنني كنتُ أريد أن أراك وجها لوجه..
- والدكِ تركككِ أن تأتي هكذا وحيدة إلى المدينة؟..
- لم أُخبره أنني ذاهبة إلى المدينة، بل استأذنتهُ في حضور معرض الكتاب في جدة، ولم أذهب هناك، بل حَوَّلتُ مسار رحلتي إليك، أقصد المدينة المنورة.
- أتعجب لجرأتك، وأتعجب لاضطرابك، ولحظرك، ومن ثم ائتمانك على غريبٍ مثلي، كيف تأمنين الغرباء؟
- ما تقوله صحيح، ولكني لم أشعر يوما أنك غريب، ولم أخف على نفسي منك..
- لماذا إذا حظرتيني فجأة، ودون إخطار؟ لقد أشعلتِ في داخلي براكين من الظنون، بركانا كان يثور في داخلي كل يوم، ويتساءل عن السبب..
- أعتذرُ منك، لكني أردتُ أن أبتعدَ عنك، خفتُ الوقوع في الحب، ورأيت أن هذا قد يضرُّ بي، أو حتَّى قد يضرُّ بك؟
- ولماذا تظنين أن تواصلي معك يَضُرُّ بي؟
- سأخبرك بكل شيء، ولكن أمهلني، حاليا أود منك أن تقوم بتشغيل مكيف السيارة، فقد أصابني الدوار من هذا الحر الشديد..
- آسف، قمتُ بتشغيل المكيف ثم عدت أسألها من جديد:
- كشمير، أنتِ جئتِ إلى المدينة دون أن تستشيريني، هل تدركين أنك غيرِ

مسلمة، وأنه لا يمكن لغير المسلمين الدخول إلى حدود المدينة المنورة؟

- قرأت عن ذلك، ولكن من يدري هنا أنني مسلمة أم غير مسلمة؟ هل يضر المدينة أن تدخل فيها امرأة غير مسلمة لسويعات؟

- ليس الأمر كذلك، أنا أُقدِّرك، وأُثمِّن أنَّكِ جئت كل هذه المسافة من أجلي، ولكن ليس من المناسب أن أدخلك حدود المدينة..

- لماذا؟

- أستطيعُ أن أُدخلك بهذه السيارة، لكن ضميري لا يرضى بذلك، إضافةً إلى أنه أمرٌ ديني، أشعر أنه من واجبي الأخلاقي ألا أقوم بنقض وثيقة أنا مؤتمن عليها، أنا هنا مقيمٌ، وعليَّ أن ألتزم بقوانين البلد، وما أفعله من إدخالك حدود المدينة أمر يناقض الدين والميثاق..

- أتَفَهَّمُ ذلك، ولكن..

- حتى لو أصرَّيتِ على ذلك، لن أفعل، وكل ما أفعلهُ الآن أنني سآخذكِ إلى فندق المطار... كم من الوقتِ لديك للعودة إلى الرياض مرة أخرى؟

- سأعودُ صباح الغد..

- حسنا، هيا إلى الفندق، إن أحببتِ أكل الشطائر فها هي، وإلا فإن بإمكانك أن تطلبي من بوفيه الفندق ما تشائين..

- سامحني، واعذرني، أثقلتُ عليك..

- لا يا فتاةُ، حللتِ أهلا ووطأتِ سهلا..

(١٨)

حجزتُ لها في فندق المطار، واتجهت إلى الغرفة (١٠٨) في الدور الأول كما وجهنا موظف الاستقبال وأعطانا البطاقة الممغنطة..

صعدتُ معها، وأدخلتها السكن..

وأخبرتها إذا احتاجت أي شيء يمكنها التصرف من خلال الاتصال على خدمات الفندق، وبالطبع يمكنها أن تتصل بي أيضا إن لم تجد ما يُناسبها هنا، وسأعود إليها بعد صلاة الظهر، تكونُ قد ارتاحت هي حتى ذلك الوقت من وعثاء السفر..

عُدت نحو الباب لأخرج..

فذكَّرتني أنه يستلزم عليَّ أن أجلب بعض الكتب معي، حصيلة ما اشترته من معرض جدة الدولي للكتاب..

رمتني بابتسامة، ونظرة شقية..

أشرتُ لها إلى عَينَيَّ، وقلتُ لها:

أبشري..

عُدت إلى سيارتي في موقف فندق المطار وعقارب الساعة تشير إلى الخامسة والنصف صباحا، تنفَّستُ الصعداء، وقلت في نفسي أنني أحسنتُ صُنعًا إذ لم أُدخلها حدود المدينة المنورة، لقد كان حملا ثقيلا عليَّ لو كنتُ فعلتُ ذلك، نظرتُ إلى نفسي في المرآة وابتسمتُ..

(١٩)

فكرتُ في طريق العودة إلى البيت عن الحب، كنتُ وحيدًا فحدثتُ نفسي عنه، استرجعت مواقفي فيه أو مواقف غيري، هل ألعنهُ لأنَّي لم أَفهمهُ بعدُ رغم أني قضيتُ عمرًا شاهدًا ومجرِّبًا..

تذكرتُ امرأة طبيبة في إحدى مستشفيات المدينة المنورة جاوزت السبعين من عمرها، وحيدة، غير متزوجة، لما عَلِمَت مني أنني أعرف ذلكَ الرجل الشهير جاوز الخامسة والسبعين من عمره هو الآخر دكتور أكاديمي، ولم يتزوج في حياته قط، وهما من بلد واحد...

سألتني بلهفة وشوق ماذا تعرف عنهُ؟ والله الذي خلق السبع الشداد لقد وجدتُ في عينيها بريق حب لهُ..

وآخر، جاوز الثمانين من عمره، انحصرت حياته بين غرفته المهترئة وبين الحرم النبوي جيئة وذهابا، صياما وصلاة فيه، وكان يُمَنِّي نفسهُ الموت في المدينة، ووصى الكثيرين من المقربين منه بدفنه في البقيع..

تواصلت معه امرأة من بلد إفريقي لأمر أهمَّها وكانت تعرفهُ منذ زمن بعيد وتحب التقرب منه، انتهت هذه القصة بأن رحل الرجل عن المدينة، وتزوجها من أجل أن يعودا معا إليها، ولكن القدر لم يمهله.. مات ودُفن حيثُ ذهب، رحمةُ الله عليه..

الحب دائما ما يزعزعُ في الإنسان أركان الدنيا، وأسس الدين، وغالبا ما يستسلم الإنسان له رغم أنفه..

حاولتُ أن أسترجع جميع ما قرأته عن الحب وأفهمه من جديد بعد أن ابتليتُ به في فترة من فترات الحياة وقاسيت منه..

لم يكن حظي ورزقي منه ما سرَّني، كابدتُه حتى تبت منه توبةً نصوحا، بيد أن (كشمير) هذه أعادتني لأتورَّط في هذا القاع من جديد، فهل ستكون دركَة أم دَرجة؟..

في طريق عودتي كان الظلام حالكا بعد، لمحتُ سيارة مرور واقفة على جانب الطريق، حاولتُ أن أستعيد حواسي التي فقدتها تقريبا أثناء تفكيري لأرى عما إذا كنتُ أسير وفق السرعة المحددة، لكن الوقت كان قد فات...

بدأت السيارة تلاحقني حتى أمرني رجل المرور بإيقاف مركبتي، أوقفتها وعدتُ مشيا على الأقدام إلى سيارته رغم أنه كان عليَّ الانتظار في المركبة...

قدمت لهُ الرخصة والاستمارة قبل أن يسألني حتى..

- وش فيك مسرع؟..
- المعذرة لم أنتبه..
- فكرك مشغول في إيش؟
- كشمير..
- إيش؟
- كشمير، تقريبا حبيبتي..

ابتسم، وكتب المخالفة المرورية، وأعطاني إياها..

مددتُ يدي، وأخذتها، لم أكذب عليهِ فيما كان فكري مشغولا فيه، ولم أستعطفهُ كي يتراجع عن المخالفة، رغم أنني كنتُ أحتاج حتى الهللات كي أدفع رسوم إقامتي التي ستنتهي عما قريب، وعليَّ تجديدها، ودفع مصاريفها..

تذكرتُ موقفا أكثر حرجا من هذا، انطلقتُ من المدينة المنورة متوجها إلى مكة المكرمة لأداء العمرة، وصلتُ قبل الموعد المحدد عبر تطبيق (اعتمرنا) بقليل، وكنتُ مسرعا بسيارتي كيلا يفوتني الموعد، وأعود إلى المدينة خاوي الوفاض..

انعطفتُ بسيارتي يمينا، وظهر لي في تطبيق (Google Map) أنني ابتعدت عن الحرم المكي كثيرا، عدت بسيارتي إلى المسار الصحيح عاكسا السير، ولسوء الحظ شاهدني مقدم أو رائد في المرور كان مارا بسيارته..

أوقفني، كان لطيفا وحازما في آنٍ معا، رمقني بنظرات تساؤلية، وأدرك من ملابس الإحرام أنني متجه نحو الحرم، أوضحت له الأمر، وقلتُ له: لم أكن أدرك أنني عكست السير، ولكن بما أنني أخطأت لك الحق أن تعاقبني، وسكتُّ..

أخبرني أنه عليَّ الانتظار، واتصل برجل مرور، والذي أتى بعد ثماني دقائق تقريبا، قلت له أثناء الانتظار أن الموعد قد يفوتُ عليَّ، ذكر لي أنَّني خالفت، وأخَّرت نفسي.. لزمتُ الصمت، فقد كان مُحقًّا..

حين أتى رجل المرور الآخر، ناوله أوراقي الثبوتية، وأسرَّ إليهِ قولا لم أستطع سماعه، توجه إليَّ وقَرعَني بحزم، وناصحني بلُطفٍ، قلتُ له أنَّك مُحق وأَنَّني على خطأ، وعُذري أنني جئتُ للعمرة، وقد فقدتُ الوقت تقريبًا، ولا أعرف للحرم طريقا، ومن حقك الوظيفي أن تُلزمني بمخالفة..

نظر إليَّ وقال: هل تعلم عن مخالفة السير؟..

لم أكن أعلم، أشرتُ إليه بعدم معرفتي بذلك، ظننتها لا تتعدى الثلاثمائة ريال، لكنه فَجعني حين قال: ٥٠٠٠ ريال..

اتسعت عيناي من الدهشة، ولزمتُ الصمت، إلا أنه قال: لن أحرر لك مخالفة، ولا تكرر ذلك مرة أخرى، وهلُمَّ خلفي أوصلك إلى الحرم..

تبعتهُ بسيارتي، وقفنا عند إشارة مرورية، فقلتُ له لن أنسى معروفك هذا، ولا زلتُ إلى يومي هذا أدعو للرجلين عن ظهر الغيب، وصحيح أنَّني لا أعرفهما، ولكن يعرفهما الله..

كل هذه الأفكار والوقائع سيطرت عليَّ وأنا عائدٌ إلى بيتي، بدأت أفكر من جديد في (كشمير)، حاولت أن أصل خيوط قصتها معي ببعضها لأخرج بصورة واضحة، ولكني لم أستطع لأنني لا أعلم عنها كثيرا بعد، حين أعودُ إليها بعد صلاة الظهر قد تنكشف عليَّ بعض الأمور، وسأقرر حينها كيفية التعامل معها..

حتى هذه اللحظة وجدتها مبهمة، جريئة، ذات لغز، مثل القضية الكشميرية تماما.. مبهمة لأن الكثير من الدول العربية وشعوبها وكذلك العالمية لا تعرف من كشمير إلا مسماها..

جريئة.. لأنها منذ ٧٣ عاما لا تزال ترفع صوتها المبحوح رغم المعاناة، ورغم القيود المفروضة على سكانها..

ولغز للعالم الذي يعرف حل القضية الكشميرية وقررتها الأمم المتحدة، لكنها غير قادرة على كتابة نهاية لها..

قلت في نفسي: دعني أفكر عن (كشمير) حاليا والتي أناخت براحلتها على باب المدينة، بل على رأسي إن صح التعبير، وسأفكر في القضية لاحقا..

(٢٠)

قمتُ بتوقيت هاتفي على المنبه على الحادية والنصف صباحا، لا أذكر متى نمتُ ولكني قبيل ذلك شعرتُ أن مخيلتي أصبحت محطة للأفكار المتضادة..

متاهات كثيرة تاهت فيها أفكاري، إن خرجت من باب مُظلم، تراءى لي آخر دون أن أصل إلى الضوء، وإن وجدتُ منفذا، صدَّتني المتاهة التالية..

شعرتُ بعجز، عشتُ صراعًا في ذاتي، وددتُ معه أن أصرخ بأعلى صوتي ووجهي مغطى بالوسادة، كفَّاي قبضتهما مرات وكرَّات، ذلك دليل إعيائي، خوفي، قلقي من قرار أنا لا أدرك كنهه...

كشميرُ، فتاة غريبة، مجهولة بالنسبة لي، هندية، وأنا باكستاني، جمعتني بها صدفة ماذا لو كانت من المخابرات الهندية، وماذا لو علم السعوديون عنها وعن صلتي بها، كيف يفكرون؟؟

أنا مذ وطأت قدماي أرض السعودية في الثالث عشر من ربيع الأول ١٤٠٨هـ لم أَرَ مقر شُرطةٍ حتى، ماذا.. وماذا.. وماذا!!..

تركتُ التفكير في الجانب المُدلَهِمِّ، والطرف الحالك، وفكرت في العُرض الأَبلج، والشطِّ النَّيِّر..

احترتُ بين جيشين ميمنة السعادة، وميسرة الحزن، وعليَّ المواجهة أيا كان الخيار..

(٢١)

عقب صلاة الظهر كنتُ عندها كما وعدتها، جلبتُ لها معي برتقالا وطعاما نباتيا كانت قد طَلَبَتْهُ، دقَّيتُ بابها، نَظَرَت من عدسة الباب، وفَتَحَتْهُ مسرورة، سلمتُ عليها، قدَّمتُ لها الطعام، وجلستُ على الكرسي المقابل لها..

ملابسها كانت ملابس المرأة الكشميرية القميص والسروال المعتاد..

شال الباشمينا الكشميري الثمين..

أما جسدها فقد غطته بالفَيرَن، وهو لباس يرتديه الكشميريون فوق ملابسهم صيفًا بقماشٍ خفيف، وشتاءً بما يعينهم على الدفء...

ومرادف الفيرن الكشميري المشالح السعودية على وجه التقريب، قديما كان يتم تفصيله حسب طول الإنسان حتى الكعبين، ثم ارتفع لما تحت الركبة..

لم أر كشميرية من كشمير المحتلة وجها لوجه من قبل بهذه الوَضَاءةِ والنَّضارَةِ، ألوان ملابسها كأنَّما أعادت إلى حياتي ألوانهُا..

وجهها البهي وملاحتهُ أعاد إلى ملامحي مشاعر البهجة المفقودة، والرونق المأمول..

نظرتُ إلى وجهها وألقيتُ من عيني إلى عينيها كل الدواوين الشعرية التي قرأتها في حياتي..

ترجمتُ نظراتي إليها وألقيتها قصيدة قصيدة..

نظراتي اختصرت مشاعري، لستُ أدري إِن شَعرَت هي بذلك أم لم تشعر، أما أنا فعشتُ الشعور والسرور..

دقائق صمتٍ مرَّت بيننا ونحن نختلس النظرات حالما تقومُ هي بإعداد عصير البرتقال لكلينا...

ثم جَلَبَتِ الطعام والعصير في صينية مرصوصًا بتنسيق جميل، وَوَضعَتهُ أمامي، تناولت شطيرة وقدمتها إليها:

- تفضَّلي.
- شكرا لك...
- عفوا.. ورميتها بابتسامة متبادلة..

لم أشأ أن أتحدث وأنا آكل

كما فضَّلت هي الأخرى الصمت ريثما ننتهي، إلا من حديثٍ بالعينين، وأحاديثُ العيون الصامتة أحيانا تكون أبلغ من الكلام المنطوق..

انتهينا من الطعام،..

وبقي علينا أن نرتشف شيئا فشيئا من العصير..

من عادتي أنني أضيف مكعبات ثلج في العصير..

قمتُ إلى الثلاجة الصغيرة، فتحتها ولم أجد ما يسدُّ شهيتي، اتصلتُ بخدمة الفندق، فبعثوا بالمكعبات، تقاسمناها، حيث كانت هي الأخرى تُفضِّل شرب العصير ممزوجا بالثلج..

قلتُ لها أنني باقٍ معك هنا في هذه الغرفة إلى أن يحين موعد رحلتكِ، لن أقاطعك في أحاديثك إلا حين الصلوات المفروضة، وقدمتُ لها الكتب التي يجب أن تأخذها عائدة إلى الرياض..

(٢٢)

- من أينَ أبدأ؟

- السؤال الذي يدور في خَلدِي منذ أول يوم، من أنتِ؟

قلتُ ذلك وأنا أنظر مبتسما إلى عينيها مباشرة، محاولا أن أحظى باعتمادها أكثر... صمتت برهة ثم بدأت تعرفني على نفسها، حواراتنا على مدار الأشهر الماضية عبر (الواتساب) كلها كانت تدور إما بالأردية بلكنتها الكشميرية، أو الإنجليزية بشكل مقتضب، حاولتُ معها أن تحدثني دائما بالأردية فقط، وبالأردية كان حديثنا الشفهي..

- أنا كشمير، من مواليد ١٩٩٢م، من (كشمير) التي تقول عنها محتلة..

- أفهم أنها في نظرك غير محتلة؟

- مهلا.. سأسرد لك كل شيء، ولدتُ في خضم المعارك الدائرة بين الكشميريين والقوات الهندية، في بداية التسعينات بدأت الانتفاضة الكشميرية، تلك السنون كانت دامية، وأنا أثناء تلك الفوضى ولدتُ، أبي (أَشُوكْ) ليس أبي، ولا يعلمُ أنني أعلم أنه ليس أبي.. لدي أختٌ غير شقيقة تصغرني، سمراء، اسمها (سَاكْشِيْ)، وأخ مثلها اسمه (رَاجْ)، قريبٌ مني نوعا ما، لا أحتك مع أبي كثيرا، ذلك الرجل لا يُحبني، ولا يكرهني، ولكنه اهتم بي منذ نعومة أظفاري، الآن هو دبلوماسي يعمل قنصلا إعلاميا في السفارة الهندية بمدينة الرياض، من قبل كان في الجيش الهندي في كتيبة من الكتائب المتمركزة في كشمير..

أما أمي (نِزْمَالا) فامرأةٌ متعلمة، علاقتي معها عادية جدا، أمي التي ولدتني (رُوبِيْنَه) مفقودة لا أعلم عنها شيئا، غالبا ما تكونُ على قيدِ الحياة، أشعر بذلك، وهو مجرد شعورٍ لا أكثر.. حاولتُ البحث عنها دون جدوى..

أبي الحقيقي (وَجاهَتْ) قُتل أثناء الانتفاضة الكشميرية، بالرغم من أنه لم يكن طرفًا فيها، كان رجلا ميسورا وجيها في بني قومه، لا أذكر وجهه... أبي مقتول، أمي مفقودة، لي أخٌ شقيق مسجون ولا أعلمُ في أي سجنٍ.. كشميرية أعيش في أسرة هندوسية، لستُ مسلمة، ولستُ هندوسية، ولستُ ملحدة... أدرس في جامعة سعودية، ورأيتك مصادفة في الرياض، وها أنذا أمامك في المدينة المنورة..

قلت لها:

- كل ما سردتيه يحتاج أن أقف عنده، لأستكشف كل شيء يتعلق بك، أنا فضولي، وبعض كلامك يهمني لأنني أحب كشمير، وأحب كشمير أيضا..

حَملَقَت في وجهي، وابتَسمَت مرتين في آنٍ معا، شفتيها.. وعينيها.. رأيت فيهما البريق الذي افتقدته في حُبٍّ سالفٍ..

ولكنني دائما ما أكبح جماحي حين أجد نفسي وجها لوجه أمام شعور الحب، إذ أنني خرجت من معركته السابقة خاسرا كل شيء..

فكَّرتُ مجددا أثناء حديثها غير المنقطع..

ما الذي يجعلني أفكر في الحب من جديد.. بسبب انتمائي لكشمير؟ أم بسبب معرفتي بكشمير، أم اجتمعت الأسباب المختبئة في صدري في هذه الفتاة الجالسة أمامي؟

أجدادي هاجروا من كشمير... هل هجروا البلاد طوعا أم كانوا مكرهين؟ وهل يترك المُكرهون الأوطان؟

ما بال الكشميريين إذا والذين لا زالوا يواجهون جبروت المحتل..

جبروت لا يمكن أن يتصوره إنسان يتنعَّمُ في خيرات الأمن والأمان، كيف تمر أيامهم؟

استعدتُ ما طواهُ التاريخ عن كشمير، رجعتُ إلى سنة ٢٦٥ لما قبل الميلاد عندما كان يحكم هذه المنطقة (أشوكا) والذي اتخذ كشمير من ضمن المناطق التي خصصها لدعوته الدينية البوذية، وهو من وضع حجر الأساس لمدينة (سِري نَغَرْ) عاصمة كشمير المحتلة...

دار في رأسي من حَكَمَ كشمير من البوذيين، والمسلمين، والهندوس، المسلمون حكموا كشمير على مدار الخمسمائة سنة منذ ١٣٢٠م حتى ١٨١٩م، حكم كشمير السلاطين الأحرار منذ ١٣٢٠ حتى ١٥٨٦م، ومن ثم السلاطين المغول حتى ١٧٥٣م، والسلاطين الأفغان حتى ١٨١٩م..

كشمير لم تتنفس الصعداء إلا في حكم المسلمين، مع أن بعض المسلمين ممن حكموها فتكوا في بعض مراحل حكمهم بالمسلمين أنفسهم لمآرب سياسية..

أما المائتي سنة منذ ١٨١٩م حتى ٢٠٢١م ففيها الكثير من الحزن، والمرارة، والألم، والأمل، والدم، خصوصا السبعون سنة الأخيرة منذ ١٩٤٧م، العهد السيخي في كشمير بدأ منذ ١٨٢٠م وانتهى في ١٨٤٦م، ومن ثم أصبحت كشمير ولاية أميرية، والتي انتهت باحتلال الهند لكشمير عام ١٩٤٧م..

- فيصل.. فيصل.. فيصل..

انتبهتُ على صوت كشمير التي نادتني عدة مرات..

أثناء حديثها شرد ذهني نحو التاريخ الكشميري، لعلي أردت أن أسترجع بعض المعلومات حول القضية الكشميرية حتى إذا ما طَرَحَت شيئا أستطيع النقاش معها..

- آسف..
- هل حديثي أضجرك؟
- لا.. لا، ليس الأمر كذلك، المعذرة، تهتُ في بعضِ أحاديثك محاولا ربطها ببعض الأمور والتساؤلات التي طرأت في خاطري، أكرر عذري لك..
- لا بأس..
- قلتِ أنَّ والدك الآن في الرياض ملحق إعلامي في السفارة الهندية، صحيح؟
- نعم..

سمعتُ من إعلامي من كشمير المحتلة هاجر إلى تركيا خوفا من بطش السلطات الهندية في كشمير، وقد قُتل بعض أصحابه ممَّن كان يكتب بشكل متواتر ما يحصل في كشمير من ظلم، قال: إن الإعلاميين الهنود، أو هنودا في صورة إعلاميين يعملون في صحف عربية في دول خليجية بالتحديد، وقد قاموا بشكل ممنهج بالحصول على إدارة الصفحات الإنجليزية حتى لا يتم نشر ما يتعلق بكشمير في الصحف تلك، بالإضافة إلى أن لديهم عمل ممنهج في الصحف العربية من أجل التسويق لوجهات النظر الهندية مقابل كبت وجهات النظر الباكستانية.. بحكم عمل والدك، هل لاحظت أن ما يُقال صحيح؟

- نوعا ما..

- لم أستسغ قولك أنَّ والدك لا يعلم أنك تعلمين أنك لست ابنته، كيف جَزمتِ بذلك؟ ثم إن كان الأمر كذلك، وتعرفين أن والداك كانا مسلمين، فكيف تقولين أنَّك لستِ مسلمة، وفي ذات الوقت لست هندوسية؟
- كيف تريدني أن أعيش في بيت هندوسي فيهِ من التطرُّف ما فيه؟ هل أصلي بينهم؟ لذلك لستُ هندوسية حتى..
- وكيف عرفتِ أنه ليس والدك الحقيقي؟
- لون بشرتي يشهدُ بذلك، ثم إنني قرأتُ خِلسةً أوراقي الثُّبوتية، وبعض الاعترافات المدونة في المذكرات التي يكتبها يوميا..
- كيف قُتل والدك؟!

حَزِنَت كشميرُ على هذا السؤال، رأيتُ في عينيها غضبا وحقدا لم تستطع أن تخفيه عني، وكيف لا تغضب ولا تحقد وهي تعيش في تضاد كبير، مسلمة في الأصل تعيش في بيت هندوسي، لون بشرتها يخالف لون بشرة عائلتها، أباها لا يحبها ولا يكرهها، صحيح أنها تعيش في حبور، بيد أن خواطرها وخلجات قلبها مما لا يمكن للإنسان أن يُسيَّرها على واقع يعيشه مُرغَمًا..

دائما ما في داخلنا يعيشُ الضمير، يعيشُ العقل والمنطق، ويعيش القلب، وتعيش العواطف...

كل هذه الأشياء حتى وإن صببنا أنفسنا وذواتنا في قالب الحياة والواقع، لا تعيشُ معنا، ولا تُسايرنا حتى وإن سايرنا الحياة المفروضة علينا... دائما إذا ما عشنا في تضاد، تعيش تلك العواطف والأجساد في تضاد، وفي نزاعٍ دائم.. أو وقود دائم قابل للاشتعال في أي لحظة..

- لن تُصدِّق ما سأقولهُ لك، عمي الهندوسي الذي يقول أنَّه والدي، هو قاتل والدي الحقيقي المُسلم..
- ماذا؟... اتسعت عيناي في دهشة، وأصابني الوجوم..
- نعم، هو قاتل والدي، وهو المُحسنُ إليَّ، وهو المُحبُّ لي، وهو الكاره في ذات الوقت.. أنا أعيش بين مجموعة من الأضداد.. قد لا تجد قصة شبيهة بقصتي في كشمير إلا في القليل النادر؛ ولكن هناك حالات أفظع، مثلا لم أخبرك عن أخي المفقود، اسمه (صَبِيح)، علمتُ أنه في السجون الهندوسية، بلا تهمة، بلا محامٍ، بلا شخص يلاحق الحق أو الباطل الذي من أجله سُجن..

لا أعلمُ عنهُ، أبحث عن خيوطٍ توصلني إليه، علمتُ هذا منذ سنة، مذكرات والدي أو بالأصح عمي.. أو ماذا أقول؟ المسيء لي والمحسن.. كشفت لي الكثير، ولا زالت تكشف، ولا زلتُ أخفي عن عائلتي التي أعيش معها أنني أعلم عن نفسي الكثير.. أنا فيهم مثل الأطرش في الزَّفَّة، ولا أعلم أين ستُؤدِّي بي هذا الحقائق في يوم من الأيَّام..

بالمناسبة اسمي الحقيقي (صبيحة)، هذا ما كتبه عمي في مذكراته، أما اسم (كشمير) فهو ليس باسم شائع للفتيات في كشمير، ولكنه سمَّاني به لأني أُشبه كشمير في حالتها، جميلة، مكلومة، مسلوبة الحقوق، ويبدو من مذكرات أبي وتعليقاته أنه لا يعجبه ما يحصل في كشمير المحتلة من همجية ووحشية، ولكنه جزء من المنظومة الحاكمة، لذلك يده بيد النظام، وقلبه مع الحق، حتى وإن كان ذلك الحق لم يُعِد لي حقوقي، قد يكون الانتماء الديني والعرقي مانع، هذه هي طبيعة الإنسان إن لم تكن مُنصفة..

- يبدو أن مذكرات والدك ستكشف لك الكثير، وإنني حزين على كل ما سمعتهُ منكِ للتو، سأقف معك بما أستطيع، ويستلزمُ عليكِ لمعرفة خفاياكِ عند (أَشُوك) أن تبحثي في مذكراته أكثر، مثلا حاولي أن تبحثي في الدفتر الذي يكتب فيه.. أوراقا ملتصقة ببعضها، لعل في ثنايا ذلك الالتصاق تكمن أسرار والدك المقتول (وجاهت)، وشقيقك المغدور به (صبيح)، ووالدتك المفقودة (روبينه)، أو ابحثي عن أوراق أو قصاصات مخفية في الغلاف إن كان مجلدا، أنا متأكد أن تلك المذكرات تحمل في طياتها ما يمكن فك رموز عائلتك عبرها بشكل أكبر ما دمت تقولين أن أباكِ أو عمك الهندوسي هو قاتل والدك الحقيقي المسلم، وأنه يحب كتابة المذكرات، هذا غالبا يعني أن لديه هوسُ الكتابة (Scribomania) والمهووسون بالكتابة عادة يصبون كل شيء فيها، حتى ولو كانت كلماتهم مرتبكة، بل وأحيانا غير مفهومة.. درس معي زميل في جنوب إفريقيا قادم من جزيرة (رينيون) الفرنسية، من أصل هندي، كان مهووسا بالكتابة، يُدوِّن حتى العطسة التي يعطسها في جانب من جوانب مذكرته الصغيرة؛ لذلك أنا متأكد أن مذكرات (أَشُوك) تخفي ما تبحثين عنه..
- سأبحث في جميع مدوناته القديمة..
- بالضبط.
- كيف قتل (أَشوك) والدك الحقيقي؟ أعدتها إلى سؤالي..
- (أشوك) وعائلته في الحقيقة جيران لأبي، عاشا معًا في قرية (كيرن) المحاذية لخط وقف إطلاق النار، أو خط السيطرة..

- أعرف قرية (كيرن) منقسمة بين كشمير الحرة، وبين كشمير المحتلة، يفصلهما نهر، والواقف في طرف واحد يرى أهل القرية الأخرى، أهل هذه القرية سواء على الطرف الباكستاني الحر، أو الهندي المحتل كلهم مسلمون، إلا من بيوت هندوسية قليلة..

- صحيح.. وهناك العديد من القرى والمناطق المحاذية لخط السيطرة، مثل (كرناه)، و(أوري)، و(سامبا)، و(أخنور)، و(راجوري) وغيرها.. المهم.. كانا معا، وأهل القرية كلهم مسالمون، لا يوجد أي تعد على أي أحد، حتى البيوت الهندوسية القليلة تعيش في مأمن وسلام، بل بينهم وبين المسلمين تزاور، عندما حدثت الانتفاضة الكشميرية في نهاية الثمانينات، وقام الكشميريون بمقاومة المحتل الهندوسي كان طبيعيا أن ينقلب الهندوس على المسلمين في الشدة مهما كان تآلفهم في الرخاء، بدؤوا بحكم انتمائهم الديني الوقوف مع السلطات والتي كانت تطلب التخابر منهم مقابل إغرائهم بالأموال وعقارات المسلمين، التحق حينها (أشوك) بالمخابرات الهندية، وصار ينقل لهم ما يحدث في القرية، ويخبرهم عن الصادر منها والوارد، كان أبي ممن يريدون أن تبقى الأوضاع مستقرة آمنة، فلم يقف مع المقاومين، وفي ذات الوقت لم يكن راضيا عن السلطات الهندية والتي كانت تطلب منه التخابر معهم، كان أبي يرفض ذلك، مما وضعه في موضع الشك لديهم، وهذا الشك أدى في النهاية إلى مقتله على يد (أشوك) جاره، والمصاحب له، والذي كان يأكل معه ويشرب الشاي الكشميري إذا حل المساء، كان أبي يدعوه إلى البيت، ويجلس معه على شرفة المنزل.. عندما تخابر مع السلطات الهندوسية شكوا فيه أيضا بحكم علاقاته الحسنة مع جيرته، ولكي يثبتوا لهم صدق وقوفه معهم كان

(أبي) هو الصيد السهل بالنسبة له، قتلهُ بتواطؤ مع بعض رجال المخابرات بطعنة خنجر في قلبه، (أُمِّي) فقدت وعيها حين دخل عليها المتواطؤون في المطبخ، كانت تُعدُّ لهم النُّزل، ولم تُرَ بعد ذلك، أما أخي الرَّضيع حملوهُ معهم، وهو إما مقتول، أو يعيش يتيما غير معروف الهوية، أو حبيسُ زنزانة مثل آلاف الشباب الكشميري، أما أنا... (صبيحة) في الأصل، (كشمير) في أوراقي الثبوتية.. كنتُ في أرجوحة خشبية صغيرة في صالة البيت، لستُ أدري لماذا لم يقتلني الدنيء (أشوك)، حملني وعاد بي إلى بيته الصغير، وها أنذا بعد كل هذه السنون أمامك الآن بكل آلامي، وآمالي، وأحزاني... والبيت الذي نسكن فيه في كشمير هو بيت والدي الحقيقي، كبير جدا، وجميل، هو محتل من (أَشُوك) مثلما هي كشمير محتلة من (الهند)، أعطوه بعد أن قتل والدي، وفرَّق شمل عائلتي الصغيرة..

حزنتُ، وليست هذه أول مرة أحزن، فلطالما قرأت وسمعتُ قصصا من كشمير، يفطر القلب لها، ويعجز اللسان عن وصف الوحشية فيها..

نساء يَعِشنَ نصف أرامل، لا تدرين شيئا عن أزواجهن، أَطفالٌ ولدوا ولم يروا آباءهم، شباب قابعون في السجون لا يدرون عن جرائمهم، اختفاءاتٌ قسرية، العنف الجنسي.. اغتصاب الفتيات الكشميريات، التعذيب والإيذاء... قوانين مستبدة، إبادات جماعيَّة على فتراتٍ متقطعة، التهجير، تدمير المنازل، جزُّ الأشجار، وحرق المزارع، قبور مجهولة شاهدةٌ على الوحشية العمياء.. انتهاكات صارخة لحقوق الإنسان.. كل هذا إلى جانب الآثار النفسية المدمرة على الكشميريين..

الأيادي الماهرة التي تغزل الشالات الكشميرية المبهجة.. والأرض التي تمخض التفاح، والزعفران، والزهور، والجمال المودع فيها من قبل الخالق، يعبثُ

المخلوق الطاغي فيها ضد خَلقِ الله.. لم يترك المحتل جمادا، ولا حيوانا، ولا البشر...

وقد رافق انتهاء الحكم الاستعماري البريطاني في الهند في ١٤ أغسطس ١٩٤٧م التقسيم السياسي لشبه القارة الهندية إلى دولتين مستقلتين: الهند وباكستان..

واتسمت عملية التقسيم ورسم حدود سياسية جديدة بالعنف الكارثي في أجزاء كبيرة من شمال الهند، ولا سيما في إقليم (بنجاب)، وأدى ذلك إلى نزوح جماعي غير مسبوق للناس امتد إلى العقود التالية..

قُتل ما يقارب مليون شخص خلال أعمال العنف التي صاحبت النزوح، اختطفت ما يقارب خمسين ألف امرأة، ونزح ما يقارب ١٢ مليون شخص في إقليم بنجاب وحده، ويُقدر النازحين بشكل إجمالي ٢٠ مليونًا..

هذا الانفصال والتقسيم بين الهند وباكستان نتج عنه واحدة من أكبر الهجرات القسرية في القرن العشرين..

قبيل الاستقلال عُقدت ضوابط يجب أن يمضي عليها الطرفان الباكستاني والهندي، إذ كانت هناك ولايات أميرية في الهند، وهي التي كان يحكمها حاكم هندي، ولم تكن تخضع مباشرة للحكم البريطاني، تلك الولايات كان لها الحق في أن تقرر مصيرها بنفسها وفق إرادة شعبها، إما أن تلتحق بباكستان أو مع الهند، أو تقرر البقاء ضمن منظومتها دون الالتحاق بأي دولة..

المناطق ذات الأكثرية المسلمة كان عليها أن تلتحق بباكستان، فيما المناطق ذات الأكثرية الهندوسية من الطبيعي أن تقف أو تلتئم في وحدة الهند، وهذا ما حصل في أكثر المناطق والتي بسببها حصلت هجرات دموية معاكسة من باكستان نحو الهند للهندوس أو السيخ، ومن الهند نحو باكستان للمسلمين..

كشمير كانت ولاية أميرية مستقلة، مثلها مثل الولايات الأخرى (حيدر آباد)، و(جوناغاد) وغيرهما، وكانت تحوي أكثرية مسلمة بينما حاكمها هندوسي، في حين (حيدر آباد) و(جوناغاد) سكانها أكثرية هندوسية، وحاكميهما مسلمين..

طالبت الهند بانضمامهما بحكم الأكثرية المسلمة، لكن حاكم (جوناغاد) كان يريد الانضمام إلى باكستان، بينما حاكم (حيدر آباد) أراد البقاء دون الانضمام لأي طرف، وأراد الكشميريون الانضمام إلى باكستان، بينما حاكمها الهندوسي كان يرفض ذلك ويماطل.. والذي حدث أن الهند طالبت بانضمام (حيدر آباد) و(جوناغاد) بناء على الأكثرية الهندوسية، بينما ناقضت نفسها في كشمير حيث الأكثرية مسلمة، فقامت بالاستيلاء على (حيدر آباد) و(جوناغاد) عنوة، واحتلت كشمير.. ومنذ ذلك اليوم والقضية الكشميرية مشتعلة في جنوب آسيا، ولخبطت أوراق الدول الإسلامية وعلاقاتها بين بعضها... ولو بقيت كما هي ستظل هذه الشوكة في حلق الأمة الإسلامية...

كنتُ وأنا أفكر في كل هذه الأمور، سوَّدت بالقلم الذي في يدي الورقة التي استَسْلَمت تماما أمام الدوائر التي رسمتها.. تلك الدوائر هي في حقيقتها المتاهات التي يدور فيها الكشميريون، وتدور فيها باكستان والهند منذ ١٩٤٨م، طغتِ الهند على الكشميريين مع مرور الزمن، قامت في ٥ أغسطس ٢٠١٩م باغتصاب وضعها الخاص، وضمت كشمير المحتلة أصلا إلى وحدتها، داست على قرارات الأمم المتحدة حيال القضية الكشميرية، وأخلفت الوعود التي قطعتها مع الكشميريين، ونكثتِ الاتفاقيات التي وقعتها مع باكستان، فما الذي يمكن أن يتوقعه العالم من خير في طرف مبدؤه ومنتهاه الشر؟!

(٢٣)

كنتُ قد أغمضتُ عيناي وأرخيتُ رأسي على الكرسي قبالة سقف الغرفة، أثناء انشغالي لبُرهةٍ مع نفسي، انشغلت (صبيحة) هي الأخرى مع نفسها، احمرار عينيها شهد عليها أنَّها بكت دون أن تُظهر لي ذلك.. قلتُ لها:

- قد لا أستطيعُ أن أُعيد لك ما فقدتيه على مر السنين، بيد أنني سأبقى معك قدر استطاعتي، على أمل ألا أُخدعَ فيكِ..

أقولها لك بمنتهى الصراحة، لقد مررت في حياتي بتجارب قاسية، هي بالتأكيد ليست أقسى مما مررتِ فيه أنتِ، بل لا تُقارن حتى، فقد فقدتِ أبا، وأُمًّا، وأَخًا، وبيتا، ووطنا، وعِشتِ غريبةً في وطنكِ بين أغرابٍ..

هذا كله لم يحصل معي، إلا أنني فقدتُ حبًّا، وفقدتُ معهُ كل شيء، ضِقتُ ذَرعًا بالعالم، وبنفسي...

لم أَعد أَشتهِي ملذَّاتُ الحياة، كأنني زهدتُ فيها، ورغبتُ عن بَهجَتِهَا، وتصوَّفتُ، انضويتُ إلى الكُتبِ، خصوصا ذات الأوراق الصفراء، والمطبوعة قديما، انشغلتُ باللغة العربية...

صرتُ أهرُب من وجهِ حبيبتي نحو الجُمَلِ البليغة، نسيتُ وجودي، وتركتُ لشغفي اللغوي أن يتوه في جغرافيا المُفردات..

- قد يستطيع الحب أن يُعيد لك ما خَسرته، ويرد لي ما فقدته..

رميتها بابتسامة، وفكرت في أن جملتها هذه قد تكون اعترافا بشكل غير مباشر بأنها تُحبُّني..

وليست هناكَ رسالة للحب أبلغ من أنها أتت إلى المدينة خلسة كي تراني وتوضح لي ما فات..

بيد أن قلبي وإن مال إليها أصبح بعد نكسته الأولى يكيل الحب بمكاييل، مثل المتردد المرتبك..

يتقدم خطوة ويتقهقرُ أُخريات...

ولكن يبدو لي أنني سأستلم..

بل أجزمُ أنني استسلمتُ منذ أشهر، ولكني أُكابر..

تحدثنا عن أمور سياسية، واجتماعية، وتاريخية، وثقافية...

كما أنني عرفتُ منها بالتفصيل عن الشالات الكشميرية...

البشمينة وأنواعها، والشاهتوش، وما يصنع منه في كشمير...

وما يباع منهُ في العالم ودول الخليج..

أمضينا وقتا ممتعا معا، ثم لما حل المساء كان عليها أن تعودَ إلى الرياض..

أخذتها إلى المطار...

جلسنا وارتشفنا القهوة في ساحته..

ثم قطعت لها بطاقة السفر، أوقفتها عند متجر هدايا صُنع المدينة، وجعلتها تختار هدية مني لها..

ثم ودعتها، وأدخلتها قاعة المسافرين..

وانتظرتُ حتى غادرتِ الرحلة المطار...

(٢٤)

طمأنتني برسالة ساعة وصولها الرياض، وتواصلت معي من خلال (السنابشات)، ووقفت عند مسار الأمتعة رقم (٢) وأرسلت لي صورة يدها وهي تُشير بإشارة النصر، أرسلت لها ابتسامة.. وقلتُ لها:

- ليتني خاتما في أصبعكِ، أو إسورة في معصمك..
- يا له من غزلٍ قديم..
- هل تأذنين لي بالغزل حتى أصيغ لغة غزلٍ جديدة فيك؟
- وهل يحتاج الغزل إلى إذن؟ يا لك من ساذج..

أرسلتُ لها ضحكة...

وقلتُ في نفسي: أحبك..

وأستطيع أن أقرض شعرا فيكِ، ينزلُ من قلبي شلالا، وينسابُ رقراقا في جداول قلبك، ويرويكِ، يكونُ بُحيرةً صافية في حياتك...

لكنني الآن جليدٌ في قَرِّ حزني..

أنتظرُ الدفء منك، كي أذوبَ فيك..

لم تكن تلك إلا أفكار نشأت بداخلي تجاهها، أو جنينُ حب لم أشأ أن أنفخ فيه روح كلماتي بعد، تركتُ ولادة هذا القرار لصروف الدهر وطوارقهُ، أو لرخاء الحياة ويُسرها.. أصبحتُ بعد مُلمَّات الزَّمن (طُويقا) في امتداده، و(أُحُدًا) في بعاده، و(خندقًا) في عتاده.. (جلمدًا) لا تهزه ريحٌ، ولا يزحزحهُ سَحٌّ ولا غَدَقٌ..

(٢٥)

اطمأنيتُ لعودتها إلى حياتي رغم أنه لم يكن بيني وبينها حتى الآن ما يجعلنا دائمي التواصل..

اللّهُمَّ غيابها المفاجئ سابقا كان رزيئةً رُزِئتُ بها، ولم أدرِ ما أفعل..

ثم عادت فجأة، وعادت بهجة الحياة، ثم زارتني فكان البِشرُ والهَناء..

مرَّت شهورا عديدة على تواصلنا..

أصبحت تُخبرني عن كل صغيرة وكبيرة، وترسل لي أينما حلَّت وارتحلت، علمتُ تفاصيل حياتها الدقيقة، بل أصبحتُ جزءًا منها، وجعلتها جزء من حياتي، أخبرها بما يتسنى لي إخبارها، وكُنتُ مُقلًّا في الحديث عن نفسي..

أخبرتُ أُمِّي عنها، وعن قصتها، عن والدها المقتول، وأخاها المفقود، ووالدتها التائهة، وعائلتها الهندوسية التي ربَّتها، وعن وضعها بينها، وعن مرض قلبها الذي أخبرتني عنهُ بشكل سطحي مؤخرا..

قالت أمي حين سمعت كل ذلك متحسرة:

- أخبرها أنني بمثابة أمها، وأن أباك إنما هي أباها..

قبَّلتُ يديها وقدميها كعادتي، وطلبتُ منها الدعاء لها، فابتسمتْ ودَعتْ، ابتسمت لأنها لم تَعتَد مني هذا الاهتمام تجاه أحد...

ودعت لأن الدعاء ديدنها لكل صغير أو كبير..

كما جعلتُ أُمِّي ذات يوم تُحدثها عبر الهاتف، فرحت (صبيحة) بذلك كثيرا..

(٢٦)

اتَّصَلَتْ بي ذات يوم..

وألحَّت عليَّ إلحاحًا شديدا أن أزورها الرياض...

قلتُ لها أنني لا آتي إلا الرياض إلا فيما ندر، وسأخبرك في أول فرصة تسنح لي، وسألتقي بك..

بيد أنها عادت تطلب مني، ولما لم تجد مني تجاوبا، أقفلت هاتفها، وغابت أياما إلى درجة أنني ندمتُ على عدم الإصغاء لها..

إلا أن انشغالي بالمدينة لم يكن يجيز لي أن أذهب دون تخطيط مسبق..

عندما أعادت هاتفها، تساءلت منها عن سبب الإلحاح، لم ترضَ بإخباري، وأصرت أنها ستخبرني بالأمور المستجدة إذا ما رأتني..

شعرتُ أن لديها شيئا لتقوله، وعزمت في نفسي السفر إليها لأرى ما تكنه لي هذه المرة من مفاجأة..

أرسلتُ لها لاحقا رسالة نصية، بتفاصيل رحلتي إلى الرياض..

وأخبرتها أن عليها أن تأتي إلى المطار، وسنلتقي هناك، وأعودُ إلى المدينة في الرحلة التالية..

أَرسلَت ردًّا مقتضبا فيه من السُّرور ما فيه، ومن العتب ما شعرته..

فعقَّبتُ أن عليها أن تعفيني هذه المرة، وسآتي إليها لاحقا، وسأقضي معها يوما كاملا، خصوصا وأنها أخبرتني أن تخرجها بات قريبا، وستعود إلى (كشمير)..

(٢٧)

أربعة أشهرٍ من عمري الذي مضى كانت عليَّ أقسى من شدة الحياة نفسها، لقد واجهتُ الصعاب كثيرا في حياتي، كنتُ جلِدًا عليها، صامدا كالطود، صابرًا كالنخلة في صحراء جرداء..

بيد أن هذه الأشهر الأربعة بعد رسالتها الأخيرة ثم غيابها كانت في ألمها مثل من سُحبت أظافره، أو بُترت أصابعه، بل مثل وقع المطرقة على اليدِ... أو كمن وُخز في راحته مسمار...

أنا لا أستطيع وصف نيران الانتظار التي تلظَّت في داخلي..

احترقتُ حتى صرتُ رمادًا..

استتارها عني وتواريها المفاجئ دون أن تُخبرني كان مثل الصاعقة تنزل عليَّ حين أستيقظ من نومي ولا أجد على هاتفي أي رسالة..

والنَّومُ لم أهنأ به أصلا..

لازمني قلقٌ مستمر، شحب وجهي، ووهن جسدي..

نظراتُ أُمِّي المتسائلة..

استفساراتها..

توجسها من صحتي..

خَشْيَتهَا من صمتي..

فزعها مما صرتُ أعيشُ فيه..

لازمتُ البيت كراهبٍ اعتزل الناس، وصعد قمة جبلٍ، وسكن غارًا، ولم يَعُد يلتفتُ إلى الخَلقِ..

كتمتُ سر غيابها في داخلي، ندمتُ على أنني لم أذهب إليها حين أرادت مني أن آتيها..

وفي يوم من الأيَّام حضنتُ أمِّي وأخبرتها كل شيء.. قلتُ لها: أحب (صبيحة) يا أمي، وقلبي بها شغوف، وانقطاعها عني هو ما أوصلني إلى ما ترين، هذه جواب أسئلتك الموجودة في عينيك منذ أشهُر..

صارت تمسح بيديها على ظهري، ورأسي، وتقول لي سيأتيك ما يسرك إن شاء الله، ومن ثم أخبرتني لاحقا أنك سألتني كثيرًا عن الحياة، وعن قسوتها، وعن الحب، وعن النساء لِمَ يَفعلنَ هكذا ويَغِبْنَ؟

وطَلَبْتَ مني أن أسقيك، وأُطعمكَ، وقد سقيتك، ولكني حين أعددت لك الطعام وجدتك قد نمتَ، ولم تستيقظ إلا بعد وقتٍ طويل، وكنتُ أطمئن عليك، أضع أذني على صدرك، أسمع دقات قلبك، أناديكَ ولكنك لا تجيب، فتركتك حتى استيقظتَ من تلقاء نفسك..

الحقيقة أنني لا أذكر إلا حضنها، وسقيها الماء لي، ثم أنا والنوم، ولا أعرفُ ماذا حلَّ في العالم في الساعات التي قضيتها نائما، ولعل السر الذي كان بداخلي حين أودعته قلب أُمِّي ارتحتُ راحةً لم أهنأ بها منذ أشهُرٍ، ولكن وخزُ غيابها الذي بصدري لا يزال باقيا..

وشروشُ حبِّها ممتدة في جسدي مثل الشرايين، ومع كل رسالة جديدة أو رنينا على هاتفي يولد الأمل أنها قد تكونُ هيَ..

(٢٨)

كل الطُّرق والأساليب التي كنتُ أستطيعُ عن طريقها معرفة حالها فشلت..

أرقام التواصل معها..

حساباتها في وسائل التواصل..

بريدها الرقمي..

صمتت فجأة..

فكأنما صمتَ العالم، أستفسر فلا أجد جوابا، أطرق بابا ولا أحد يفتحه، أصرخ في نفسي فيَرتَدُّ صوتي إليَّ..

عجزتُ...

مثل الذي طوَّقتهُ الجبال من جهة، ومن جهةٍ أخرى المحيط الممتدُّ، فكأنما ضَعُفَتِ الهمة فلا أستطيعُ الصعود، وخارت القوى ولا أستطيع خوضُ اليَمِّ..

كانت صبيحة قد أهدتني (مذكرة) لأدون فيها ملاحظاتي وقلما حبريا جميلا، النصف الأعلى منه ممتلئ عطرا، فقد كان قلما، وكان قارورة عطر في ذاته..

وقد قالت لي حينها أنها إن غابت عني أقوم بفتح هذه المذكرة، وأُدوِّن فيها كيف مضى وقتي دونها، لم آبه كثيرا بذلك، ووضعتُ مذكرتها بين كتبي..

في شدة يأسي الذي أعيشه قررت أن أُدَوِّنَ ما أمرُّ فيه طمعا في الهروب من متاهاتِ غيابها، فإذا برقم هاتف مدون على الصفحة الأولى مع ملاحظة مقتضبة جدا، قالت فيه: «إذَا غِبتُ».. مع ابتسامة وتوقيع..

(٢٩)

أوَّاهُ، يا للعذاب الذي عشتهُ كل هذه الأشهر، كانَ فَرَجِي منطويا في صفحةٍ لم أَقُم بفتحها.. أصابني الوجومُ لثوانٍ، ثم فتحتُ هاتفي، وأرسلتُ رسالة مجهولة المبنى.. أستعلم عن صاحب هذا الرقم... فباغتني الجواب، وقال:

- لا تستذكي عليَّ، أنا (راج)، وأنتَ (فيصل).

تعجَّبتُ في بادئ الأمر؛ لكني استدركتُ أن (صبيحة) أخبرتني بأن علاقتها مع أخيها غير الشقيق (راج) طيبة، وأدركتُ أنَّهُ يحفظ رقمي، وأنه من المؤكد يعرف كل شيء، جوابه المفاجئ هذا تفسيره الوحيد، فقلتُ له:

- كيف حالك (راج)؟ أخبرتني (كشمير) عنكَ، وأنك قريبٌ منها، وأنكما على وفاقٍ عكس أفراد عائلتك..
- أنا بخير، وما قلته صحيح، وأرسل أيقونة ضاحكة..
- غائبة عني منذ أشهر، ولا أعرفُ عنها شيئا، هل هي بخير؟
- لماذا تأخرت كل هذا الوقت ولم تتواصل معي؟
- لماذا لم تتواصل أنت معي دام رقمي معك؟
- قالت لي (كشمير) أن أرد عليك متى ما أرسلت لي، ولم تأمرني بالتواصل معك..
- حسنا، خطئي أنني لم أنتبه لرقم هاتفك إلا بالمصادفة، أخبرني عنها، وَانْهِ قلقي حيالها رجاءً..

- هي بخير، ذهبتْ إلى (كشمير)، أرسلها أبي عنوة، وقد علمَ أنَّها ذهبتْ إلى (المدينة) عوضا عن (جدة)، غضبَ منها، وظنَّ فيها الظنون، وقال لها أنَّها لم تصدق معه، ثم عاقبها أن أرسلها إلى (كشمير) فور انتهاء الدراسة، وهي الآن هناك، والهواتف مغلقة، والشبكة مقطوعة منذ أشهر بسبب البعثرة التي حصلت بعد أن قامت حكومتنا بإنهاء وضع كشمير الخاص في الخامس من سبتمبر ٢٠١٩م، وإلحاقه بالوحدة الهندية..

- نعم أعلم، ولكن لِمَ لم تُخبرني قبل ذهابها؟

- أرادت منك أن تأتي إلى (الرياض)، ولكنك خذلتها، غضبت منكَ، فلم تُخبرك، كما أنَّها منعتني من إخبارك، وأخبرتني أنه إن تواصل معك أخبره، وإلا فلا، وهذا ما حصل، لم تتصل بي، فلم أتواصل معك، وحين اتصلت بي أخبرتك...

أتبع كلامه بضحكة.. وددت لو أنني كسرت أسنانه التي ظهرت من خلال الأيقونة الضاحكة التي أرسلها، إلا أنني عذرتُهُ، وحمَّلتُ نفسي مسؤولية ما جرى، ثم استفسرتُ منه إن كان يريدُ شيئا من (المدينة)، وكذلك متى ستعود (كشمير) إلى (الرياض)، وهل يمكنني التواصل معها في كشمير أم لا؟

- نعم، أُريد فصفص مصري، نفس النوعية التي أعطيتها لكشمير، وأريد أيضا نعناع المدينة..

ضحكتُ في نفسي لانبساطه في الحديث معي، وطلبه هذه الطلبات، وهي مجموعة أشياء كانت ضمن ما أهديتها لصبيحة حين زارتني المدينة، ويبدو أنها أعجبتهُ، فقلتُ له:

- أبشر سأبعثها إليك بداية الأسبوع القادم، وماذا عن رقم تواصل مع (كشمير) في (كشمير)؟ ممكن؟
- غير ممكن، لا توجد إلا طريقة واحدة، وهو أن تذهب بنفسك إلى (كشمير).

قال ذلك، وأتبع قوله ضحكة طويلة، كان يمازحني، ويدرك أنني لا أستطيع الذهاب إلى كشمير..

لأنني باكستاني أولا، ثم بسبب جائحة كورونا، والحصار المفروض على الكشميريين هناك، ما يقارب ٨٠٠ ألف جندي ينتشر في كشمير حتى لا تنتفض وتُسبب مشكلة انفصالية للهند.. والذهاب إلى (كشمير) بالنسبة لباكستاني إنَّما هو الانتحارُ بعينهِ..

قلت له:

- تضحك لأنني لا أستطيع الذهاب إلى (كشمير)؟
- أنتَ تُدرك ذلك، ولكني أُمازحك..
- ماذا لو رأيتني يوما في (كشمير)؟ هل ستستضيفني في بيتك؟
- بالطبع..
- حقا؟ وعد؟
- نعم..

إذًا لا تنس وعدكَ هذا، وسآتيك إلى (كشمير)، وسألتقي بك، وآمل حينها أن تستضيفني على الشاي الكشميري، وألا تخاف من الجنود المنتشرين هناك كالفَراشِ المبثُوث، وألا تطعنني في ظهري وجلا منهم..

- صدقًا تقول ذلك؟
- نعم، من يدري سأزورك يوما ما في (كشمير)..
- على الرحب والسعة يا (فيصل)..

قالها وهو غير آبهٍ، فالدخول لباكستاني في كشمير المحتلة مثل دخول الكافر الجنة.. وأنا الباكستاني في نظر الهنود كافرٌ، وحرامٌ عليَّ دخول (جنة كشمير)..

وعلى النقيض من ذلك، بما أن كشمير جنة الله على أرضه، فإن الكشميريون يقولون أنَّ الجنة حرامٌ على غير المسلمين..

لا يهمني هذا التراشق اللفظي بين المسلمين والهنادكة، المهم هو ماذا يحصل في كشمير، وماذا يريده الكشميريون من العالم؟ وماذا قررت الأمم المتحدة عن القضية الكشميرية..

وهل أصلا قضية كشمير تُهم العالم؟ أم أنها تُستخدم كوقود بين الجارتين النوويتين لتبقى المنطقة في اشتعال دائم من الحقد والكراهية؟ من يريدُ ذلك، وعلى حساب من؟ ولماذا؟..

هل مات الضمير الإنساني، ولم يعد يشعرُ بما يحصل في هذه الجنة التي استحالت جهنَّمًا على أهاليها المُسالمين..

هل العالم بأسره والذي يهتز لحقوقِ كلبٍ أو ذبابة لا يَعرفُ ولا يشعر بما تحصل من انتهاكات لحقوق الانسان في كشمير أو في غيرها في بلاد المسلمين بشكل عام؟ استرجعتُ أشياء كثيرة عما يحصل في كشمير، ولكني كبحتُ جماح التفكير، مجرد استرجاع الحالة التي يمر بها الكشميريون أمرٌ موجعٌ..

(٣٠)

فكرت في كيفية الحديث مع صبيحة..

وخفت من فقدها حتى وإن لم أملك منها إلا صدفة الرياض، ولقاء المدينة..

وحُبٌّ لم يستقر بعد على قرار..

والذي نعيشهُ نحن الاثنان في قلبينا لكنهُ لم يلد بعدُ على الشفاه..

يبرق في عيوننا.. ولم يرعد حتى الآن إفصاحا..

اطمأنَّ قلبي على أنَّها بخير في كشمير..

وفي ذات الوقت أصابني من الوجع ما أَصابني لأنَّها لم تتواصل معي..

هل فعلا لأن الشبكة في كشمير مقطوعة بسبب ما حدث من تغييرات دستورية في الهند تجاه كشمير؟ أم أنها غاضبة مني، أم أنها خائفة من (أشوك)؟

كنتُ أعلم أن كشمير في حصار بشري وتقني..

فعليا قطعت الحكومة الهندية الهواتف والشبكات..

لأن أصدقائي في كشمير المحتلة انقطعوا عني..

وحين خرجوا إلى مدن هندية أخرى خارج (كشمير) تواصلوا معي وأخبروني..

كما أنني كنتُ قد علمت عن ذلك عبر الأخبار الواردة من كشمير، أو من أولئك الكشميريين الذين عادوا إلى المدينة بعد انقضاء إجازاتهم السنوية..

دكتورٌ كشميري حكى لي أوجاع كشمير بتفاصيلها..

(٣١)

في الأسبوع التالي من التواصل مع (رَاج) أرسلتُ له ما طلبَ مني من نعناع (المدينة)، وفصفص (مصر)، وأضفت هدايا أخرى رأيتُ أنه قد يفرح بها..

وجدته -كما ظننتُ فيه من الظن الحسن- سليم القلب، نقي السريرة، وقد شهدت له (صبيحة) بذلك، وأردتُ أن يبقى على تواصل معي لأستطيع السؤال عنها باستمرار..

كما أنني كتبتُ له رسالة خطية شاكرا إيَّاه على لطفه معي..

فاتصل بي حين استلم الطرد، وشكرني على ما أرسلته لهُ، وطلبتُ منه أن يُبقيني لطفا منه على اطلاع بما يخص أخته (كشمير)..

وعدني، وسألني إن كنتُ أحبُّها..

لم أُجبهُ..

بل سألتهُ إن كان قد سبق له الوقوع في الحب..

أجاب بأنه يُحبُّ جارتهم في الرياض، ابنةُ طبيب باكستاني شهير، فقلتُ له:

- عليكَ أن تنسى ذلك، أنت هندوسي، ومن كشمير المحتلة، وهي باكستانية مسلمة، لا تحول بينكما الحدود الجغرافية والسياسية فحسب؛ بل حتى الحدود الدينية..
- وأنتَ، ألا تُحبُّ أختي، هل فكرت حين أحببتها في ذات المحاضرة التي ألقيتها عليَّ للتو؟

ضحكتُ في نفسي..

وفي ذات اللحظة حزنتُ..

لأن (راج) لا يعلمُ شيئا عما اقترفه (أباه) في حق (صبيحة)..

ولا يعلم أيضا أن (صبيحة) لا تعتبر نفسها هندوسية؛ ولكنها في ذات الوقت ليست بمسلمة حسبما أعتقدُ..

ولكني على يقين أن شرارة الإيمان لا تنطفئ في أي مسلم أو مسلمة وإن مَرَّ بما مَرَّ من ظُروفٍ أو أحداث..

هذه الشرارة تظل تشعل فيه الحنين إلى الأصل من حين إلى آخر، قلت مجيبا لـ(رَاجْ):

- لا، لم أُفكِّر، وليست عندي حاليا إجابة لك..

ولكنك تعلمُ ما عنيت، مهما تكن الأسرة المسلمة على انفتاح، بل وحتى انفساخ من الأمور الدينية، يظل الانتماء الديني هويتها...

وأنت هُنا تتحدث عن فوارق الاعتقاد، وفواصل الجغرافيا..

ثم عادةً الباكستانيون يفضلون العمل في المملكة لأنهم سيقتربون بذلك من الحرمين الشريفين...

وأغلب الظن أن الطبيب وعائلته فضَّل أن يهاجر إلى المملكة بسبب ذلك، كثيرون من الأطباء والمهندسين يفضلون المملكة حتى على الدول الغربية..
ثم يا (راج) هل تحبك الفتاة؟

- لا أعلم.

- أخشى أن تكون نزوة فقط لأنك متأثر بحُسنها، أكثر من يحبون يرون الوجه، ويقعون في الحب، وحين يواجهون الجوهر في الفتاة أو الفتى تسقط صروح الأحلام التي بنوها ونسجوها في مخيلاتهم..
- هرطقة..
- هههههه، حسنا اعتبرها هرطقة...

ولكن الأيام ستثبت لك أشياء كثيرة كنت تجهلها، أو كنت تعتبرها فلسفة، حتى بخصوص أختك (كشمير) قد تتفاجأ..

حينها ستجد أنني أجبتك على سؤالك الذي لم أفصح عنه..

ونرى حينها ما موقفك مني، ومن أختك..

- أنتَ الآن تُلغِز في الأمر، ولكنه يعود إليك، إذا أردت أن تفصح الآن فافعل، أو إذا أردت ذلك لاحقا سأنتظر..
- حسنا، سأخبرك..

أو تُخبرك (كشمير) لاحقا.

- لِنَر...

ما الذي يسفره وجه الغد...

أنت تعرف أنني ضَحوكٌ..

وأنت تتحدث بأسلوب يجعلني أعبس مع ذاتي..

- لا يا راج، أرجوك لا تضجر ولا تقلق..

(٣٩)

اتصل بي (راج) بعد أسبوعين من آخر مكالمة بيني وبينه..

وذكر لي أن (كشمير) ستعود قريبا إلى المملكة، وأمرتني بأن أخبرك بعودتها، فسألته إن كان من الممكن أن تعطيني رقمها المباشر لأتواصل معها..

فذكر أن (كشمير) منعته من ذلك، وستوضح لي الأسباب..

كما قال لي أنها سألتني إن كنت تريد شيئا من كشمير،

فقلت له:

- نعم: عسل، وزعفران...

وكيلو (جمل الليل)..

وحفنةٌ من تُرابِ كشمير..

كما قلت له أن تستفسر لي عن صانعي الشالات الكشميرية وبائعيها، وتصور لي بعضا منها وتكتب المعلومات المنوطة عنها مع كل صورة..

بلغها أيضا أننا جميعا مشتاقون لرؤيتها..

وأنني سآتي إلى الرياض وسأجلس معها..

مع اعتذاري لها عن تخَلُّفي السابق، والذي دفعتُ ضريبته بغيابها، وقاسيت من العذاب النفسي ما لا يمكن وصفه..

- حسنا سأفعل، واعتبر ما طلبتهُ من الأشياء وصلتك.

- شكرا عزيزي (رَاج).

(٣٣)

سمعتُ رنين هاتفي ربما أكثر من ٧ مرَّات وأنا بين النوم واليقضة على رأس سنة ميلادية، بيد أني لم أقو على رفع الهاتف، كنتُ وحيدا، بي من الوجع ما بي، مستسلما للنوم والآلام التي اجتمعت في جسدي الملقى على السرير مثل من يدرك ما يحدث حوله لكنه لا يستطيع التصرف..

استجمعتُ قواي..

أمسكت بالهاتف بعد أن صمت، وأمضيت دقائق باحثا عن رقم الخادم البشتوني (شيرين جان) الذي يجلس في الدور الأرضي في غرفته الصغيرة..

جاءني وكل نظراته تساؤل، فلم يكن من المعهود مني أن أتصل عليه بعد منتصف الليل، طلبت منه الشاي فأحضره، وعندما هم بالخروج طلبت منه أن يجلس أمامي لدقائق..

شربت الشاي وأنا صامت مثل الصخرة أمامه..

كلما نظر إليَّ مستئذنا، أشرت إليهِ بالجلوس، كنتُ وحيدا جدا في ذلك اليوم، وخائف من الأوجاع التي حاصرت جسدي وروحي..

فكرت في أن أوصيهِ لأنني شعرتُ أن هذا اليوم قد يكون نهايتي، ولكني صَمَتُّ، وفوضتُ أمري إلى الله، استأذن مني، فذهب، صليتُ بصعوبة وعدتُ إلى السرير ملقى كما كنتُ..

استيقظتُ ظهر اليوم التالي، شعرتُ بتحسن كبير، صليتُ الفجر والظهر قضاءً، ثم فتشتُ الهاتف..

إلى جانب الرسائل الكثيرة، وجدت مكالمات فائتة، توقفت عن البحث عن الاتصالات والرسائل عند اسم (صبيحة)..

يا الله!

اتَّصلَتْ تسع مرات بعد منتصف الليل..

اتَّصَلتُ في اللحظة ذاتها، وباركت لها القدوم، وباركت لي السنة الميلادية، فَرِحَت وعاتَبَت في ذات الوقت..

وفرحتُ أكثر لسماع صوتها بعد هذه المدة الطويلة البائسة الكئيبة..

شعرتُ أن المطر الذي ينهمر خارج البيت، يهطل داخلي..

يروي أعماقي التي يبست من انتظارها الطويل...

لم أُعاتبها على شيء..

أظن أن ما سوى الحب لها، قد مات كل شيء في داخلي، بل أجزم أن الحب كان قد مات أيضا..

إلا أن (صبيحة) أحيتهُ من جديد..

وقد هجرتُ عتاب الأحباب والأغراب منذُ زمنٍ طويل..

لم أعُد أحسب الربح والخسارة في علاقاتي.. من دخل في صداقتي رفعت قدرهُ، ومن خرجَ من حدودي لم أتبع أَثرهُ، أظن أننا حين نخسر من نهواه، وما شُغفنا به، نفقد أسباب الحياة، بل نشعر أننا نعيشُ مكرهين، نسحبُ أجسادنا مضطرين، بحثا عن الموت.. وهنا يستوي في أعيننا النور والظلام..

(٣٤)

اتصلتُ على رقم (صبيحة) متلهفا، كمن يفتح الأرقام السرية لخزينته البنكية كي يرى ما زاد في ثروته، وكانت (صبيحة) المَيْسَرة والثَّروة التي أثرت حياتي بعد الإملاق الذي عاشهُ القلب، والبؤس الذي استقرَّ فيه، والعُسر الذي قاساه، سمعتُ صوتها المُتَلَهِّف:

- مرحبا فيصل!!

- .....

ما إن سمعتُ صوتها، أصابني الوجوم، حاولتُ أن أرد على تحيتها، وأملك نفسي، وأُظهر رباطة جأشي، إلا أن الذي أجاب عني كانتا عيناي بدمع مدرارٍ..

هذا الجواب كان صامتا، فيه من الوحشة ما فيه، ومن الاحتفاء ما شعرتُ به، كنتُ صامتا مثل صمتِ المُعزِّي، ومحتفيا مثل بُشرى البَشير، شعرتُ بداخلي احتراقُ شمعة وذوبانها من جهة، وفرحة الطفل بالمفرقعات النارية من جهة أخرى...

يا الله...

غيابها الموجع..

صوتها الندي..

جمالها الأَغرَّ...

حضورها الزَّاهي.. شعوري الآن كان كمن يقرأ في ذاتِ اللحظة بسم الله الرحمن الرحيم أَمنًا، وأعوذُ باللهِ من الشيطان الرجيم خوفا..

- فيصل؟

- .....

- ألو..

أهلا صبيحة! والمعذرة تُهتُ في صوتك كما تُهتِ أنتِ في كشمير.. فقد سمعتهُ بعد غيابٍ منكِ مؤلم..

- المعذرة مني يا فيصل...

وَلَكَمْ اعتذرتُ منك من قبل، بيد أن الأمور لم تكن بيدي..

ولكني عدت الآن إلى الرياض، وأنا هنا لمدة قصيرة، وسأعود وحدي بعد أسابيع إلى كشمير، أو سننتقل كلنا إلى مكان آخر...

أنت تعلم أن (أشوك) دبلوماسي، وقد انتهت مهلة ابتعاثه في المملكة.. المهم، هناك الكثير لأقوله لك..\

حاليا أردت أن أطمئن عليك، وأخبرك بمجيئي، حاولت الاتصال أمس عند الوصول لأهنئك بالسنة الميلادية الجديدة، وفي ذات الوقت أتحدث معك، ولكن لم يَتَسَنَّ لي ذلك...

- صحيح، رأيت مكالماتك الفائتة، ولكني كُنتُ مرهقا، ولم أستطع الرد على أحد، رأيت الاتصالات على هاتفي، وأول ما قمتُ به هو التواصل معك..

- شكرا لك، وكل عام وأنت بخير..

- وأنتِ بخير وسلام..

- ما هي أخبارك؟

- الإجابة على هذا السؤال القصير يحتاج لأن أكون أمامك لأطول مدة ممكنة، لأخبرك بما كنتُ فيه من قبل، ثم ماذا صرت إليه بعد اللقاء بك، وما الذي حصل بعد اختفاؤك الأول المفاجئ، والثاني كذلك، وما عانيت من قسوة وشدة.. هل ستسمعين مني ذلك وجها لوجه؟

- بالطبع يا فيصل، كنتُ أريد منك أن تأتيني الرياض قبل سفري إلى كشمير، إلا أنك أبيت، كنتُ أريد أن أخبرك بأمور، ولم تُسعفني اللحظة، ولم تُدرك حجم اضطراري.. أنا الآن عُدت وسأخبرك بكل شيء.. وعندي لك أخبار أخرى كثيرة، كما أنني جلبتُ لك ما طلبته من (راج)..

- هل جلبتِ حفنة من ترابِ كشمير؟

- طبعا، أمرك نافذ حتما، لا أعدل عنهُ، وسألزِمُ غرزكَ..

- شكرا لك..

يهمني التراب أكثر من أي شيء آخر..

سأضعه في قارورة زجاجية على مكتبي..

وسأزرع فيه نبتة صغيرة، علَّها تسكن روحي التَّواقة إلى كشمير..

- من حُسنِ حظك أنني جلبتُ لك كشمير لتكون في يدك.. وإن كانت قبضة من ترابها..

- أنتِ من حُسنِ حظِّي..

وكلي امتنانٌ لك..

(٣٥)

ذهبتُ إلى الرياض بعد مدة طويلة، وجدتها هذه المرة أبهى من المرات السابقة وأزهى، فقد عادت إليها من أَحبَبْتُها، ومن إذا رأيتها أصبحت الدنيا تزدان في عيني، بعد أن عزفت عنها عزوف الراهب..

كنتُ في المرحلة الماضية من حياتي آكل من قوت اليوم ما يسد الجوع، وأعمل قدر ما أستطيع به سداد التزاماتي..

ماتت كل رغبة في داخلي..

انعزلتُ عن الناس وانكببتُ على الكتب..

صرت أهتم بحواشي الكتب أكثر من متونها، حتى كنتُ أقفُ عند المفردات التي تعجبني مفردة مفردة خصوصا تلك التي كانت تُعَبِّر عن الحزن، والقلق، والخوف، والظلام...

أفتح القواميس العربية المختلفة، والأردية، إلى جانب الإنجليزية، وأبحث عن الأصول والفروع، والمتغيرات على الكلمة وجذورها، وسفرها من جغرافية إلى أخرى، وتسلقها جبال اللغات...

الحقيقة أنني استمتعتُ كثيرا في انطوائي هذا..

ثم شاء الله أن يعود الحب إليَّ من جديد..

فماذا عليَّ أن أفعل الآن، أظن أنني سأتعمق أكثر في المفردات، ولكن مفردات السرور، والاطمئنان، والأمن، والنور، أظن أن هذه هي العناصر التي تكونت منها (صبيحة) في نظري..

اتصلتُ بها، وقلت لها:

- تتوقعين من أي مكان يصلك صوتي الآن؟
- بالتأكيد من فمك..
- هههههه، أقصد مصدر الصوت..
- هاتفي..
- ضحكتُ مجددا، وعلمتُ أنها تمازحني، والحقيقة أنني لم أخبرها أنني قادم إلى الرياض، أردت أن أصل، ومن ثم إخبارها بعد الوصول، حتى أستطيع ترتيب مكان للقاء بها، وإخبارها بذلك، فقلت لها:
- عموما، إن كنتِ تشعرين فلعل هذا الصوت قريب منكِ جدا...
- أووووووه، يعني أنك في الرياض؟!!
- نعم..
- مرحبا بك، أسعدتني جدا بهذا.
- أنا أسعدُ منكِ بك..

ثم أخبرتها، أنني سألتقي بها مساءً في المطعم الإيطالي (مامو) في العُليَّا ببرج الفيصلية..

وحددت لها الوقت..

وأردت إرسال الخارطة لها..

فأخبرتني أنها تعرف المطعم جيدا..

السابعة والنصف كان لقاؤنا، كنتُ قد حجزتُ مسبقا طاولة الطعام الواقعة تحت شجرة الليمون، أمامي حاجز من الخشب، وعلى يساري نافذتان يظهر منهما في الخارج اللون الفيروزي، انتظرتها، أتت قبل الموعد المتفق بخمس دقائق، اتصلت بي فخرجتُ لأستقبلها عند الباب...

كان الجو في الرياض باردا، كنتُ على عكس الناس الموجودين هنا حولي يلبسون من الماركات العالمية ما يلبسون؛ مرتديا الثوب السعودي، مُتَلَحِّفًا بالفَيْرَن الكشميري، ثقافتان ممزوجتان في روحي مزجتهما على جسدي، لا أدري كيف يرى الناس هذا المزج في هذا المكان، ولم تكن تهمني أبدا نظرات الناس ما دمتُ أعيشُ في عالمي الذي يسرني ويجعلني منشرح الصدر مطمئن البال..

حين ظهرت (صبيحة) لم يكن يظهر منها إلا وجهها، البردُ أخفى كل شيء من طلعتها، ولم يكن يهمني ذلك قدر ما تهمني البسمة على وجهها، والسعادة في ذاتها، كشميرية تَتَلَحَّف بشال البشمينة الكشميري، محياها، وعيناها، والحياء في وجهها، كيف تتصور وجه حسناء متلحفة بشال كشميري أسود مشغول في جوانبه بالزخارف والألوان الكشميرية الزاهية؟

من الصعب جدا وصف الشعور وتلك اللحظات في كلمات، ولكن كانت مثل دفء الجمر في الشتاء، ورذاذ الماء في الصيف، والزهر في حقل من الشوك، وشعور مثل شعور المستظل بالدَّوحة..

لم أمدَّ يدي لها، ولم أفعل ذلك من قبل أيضًا، رفعتُ يدي على صدري، وسلَّمتُ عليها، وابتسمتُ، ورحَّبتُ.. وشكرتها على قبولها الدعوة، رمقتني بنظرة، وقالت:

- على العكس من ذلك، أنا الشاكرة لموقفك، والممتنة لك على مجيئك، وقطعك كل تلك المسافة من أجلي..
- هذا اعتذار مني على عدم تلبيتي دعوتك المرة الماضية، والذي على إثرها افتقدتُ حتى أثرك، أليس من المفترض أن تُخبريني قبل مغيبك؟
- صحيح، ولكن حَدَثَت أمورًا منعتني من ذلك، ولكني كنتُ قد كتبتُ لك في المذكرة طريقة الوصول إليَّ..
- صحيح، ولم أنتبه إلى ذلك إلا مصادفة، وشكرا لراج الذي طمأنني عليك رغم أن هذا لم يحصل إلا قبل فترة يسيرة، وليتني فتحت المذكرة ولم أعاني من العذاب ما عانيتُ..
- آسفة..
- حسنا، أين تربة كشمير؟
- اصبر، سأعطيك كل شيء طلبته، كما ذكر لي (راج) أنه طلب منك من المدينة ما كنت أعطيته لي أيضا، يعجبني في (راج) أنه ليس مثل عائلته، بل يقف معي في السراء والضرَّاء، وأشعر أثناء معاملته لي أنني فعلا حُرَّة..
- ماذا عن كشمير، كيف هم الكشميريون الآن؟
- أنت تعلم أن سبب عدم تواصلنا هو الانقطاع في الاتصالات والشبكة التي فرضتها الحكومة الهندية هناك خوفا من خروج الكشميريين ضد القوانين التي سُنِّنت مؤخرا، وأنهت وضع كشمير الخاص، وضمتها تحت الوحدة الهندية عنوة.. هم كما هم منذ الأول، محاصرون بجنود، وأظن حسب إحصائيات

السكن في كشمير المحتلة ووجود ما يقارب مليون جندي هندي، فإن على رأس كل ١٢ كشميري جندي هندي بكامل سلاحه وعتاده، الأحياء في حصار، الجوامع لا تُصلى فيها الجمعة، يعيشون أو نعيش في رهاب اجتماعي، هذا مختصر ما يمكنني نقله لك.. وأنت بحكم متابعتك للإعلام الهندي أو بشكل عام تعرف هذه الأمور، ولا تخفى عليك يا فيصل.. الأمر لا يختلف عما يظهر لكم في الإعلام..

- ماذا عن المادة ٣٧٠ وكذلك ٣٥-أ في الدستور الهندي؟، أنا ملم في بعض جوانبه، ولكن كيف يراه الكشميريون؟

- هناك جزء من الدستور الهندي الذي شُكِّل عام ١٩٤٩م تم تخصيصه للتعامل مع الأمور المؤقتة والخاصة، وبما أن موضوع كشمير كان موضوعا مؤقتا وخاصا في ذلك الوقت..

أضيفت مادة جديدة برقم ٣٧٠ إلى الدستور الهندي، هذه المادة حوت بعض الأمور المتعلقة بكشمير منها: أن البرلمان الهندي وتشريعه للأمور فيما يخص كشمير يقتصر فقط على المسائل التي يقررها الرئيس بالتشاور مع حكومة كشمير..

يعني أنه ليس له الخيار في أن يقرر شيئا من عنده، وأي دستور في الهند يراد له التطبيق في كشمير لا يمكن إطلاقه إلا بالرجوع إلى الكشميريين أنفسهم وموافقتهم...

باختصار هذه المادة كانت تحفظ للكشميريين وطنهم في وضع خاص يمنع التدخل الهندي المباشر فيه..

- والمادة ٣٥-أ؟

- نعم، هذه المادة تعتبر امتداد للمادة ٣٧٠ التي كانت مؤقتة وفي حالة انتقالية خاصة، إلا أنه في عام ١٩٥٣م تمت إضافة المادة إلى الدستور الهندي بشكل قانوني تام، وبموجب هذه المادة لم يكن يحق لأي شخص أن يكون مواطنا في كشمير إلا إذا ولد فيها..

ولم يكن يجوز لأي مواطن هندي من ولايات هندية مختلفة أن يقوم بشراء العقارات في جامو وكشمير، وكذلك ليست لديه أحقية الحصول على وظيفة حكومية، بالإضافة إلى أنه لا يمكن له أن يقوم بالتصويت والمشاركة في الانتخابات في كشمير.. هذا باختصار..

وإلغاء المادتين يعني سلب هوية كشمير، وإلحاقها بالوحدة الهندية مثلها مثل أي ولاية هندية أخرى، وهذا بالتالي يعني أن أي مواطن هندي يمكنه العمل في وظائف حكومية في كشمير، ويمكنه الهجرة وشراء الأراضي، وبالتالي يفتح باب تغيير الديموغرافية الكشميرية، وهجرات الهندوس من ولايات هندية أخرى..

يعني أن المسلمون الكشميريون في يوم ما سيصبحون أقلية..

عندها يمكن للهند العمل وفق قرارات الأمم المتحدة بالتصويت في كشمير، وغير المسلمون بالطبع سيصوتون للهند...

هذا تخطيط الهند..

وهذه هي الأسباب التي أدت إلى إلغاء المادتين، وهم يقومون بحشد الإعلام والأدوات الأخرى لذلك..

- فتحتُ معكِ حديثا في غير محله، ولكني أردت أن أعرف منك ما يحصل في كشمير لأنك شاهدة على أشياء كثيرة، ثم إنَّك عدت للتو من هناك..

- لا بأس، اسأل ما تشاء، وسأجيب بكل سرور، ولا يهم المكان والزمان، لمثلك يا (فيصل) يرخص كل ثمين، ثم إن لك الفضل في أمور كثيرة عليَّ حتى وإن كنت لا تشعر بذلك، فلا تتردد في قول شيء، في أي ميقات وحين..

- أود أن أخبرك أن اختفاؤك عني، وغيابك المفاجئ يُشعرني بالإحباط الشديد، والذي أشعر به حين احتجابك أن شيئا ما في داخلي يُحدث فوضى عنيفة، أحسُّ بإرهاب داخلي، أشعر أن ميليشيات الحُزن تغِيرُ على غابات سعادتي، وتقتلع أشجار أفراحي، أنا أُريدُ أن أعيشَ في سُكون واطمئنان، ووجودك بالقُرب مني يحرسني من تطرُّف الأسى، وتشدد الجَزَع، وتجاوز اللَّوعة والكَمدِ عليَّ، وأودُّ أن أخبركِ أيضا أنني أحبك..

هل تبادليني نفس الشعور؟ أرجوك بعد أن سمعتِ كل هذا مني بهذه الجرأة غير المعهودة مني أن تُخبريني بجوابك، إن كنتِ تستطعين الوقوف بجانبي أخبريني، وإن كنتِ تحبين شخصا آخر من قبل فلا لوم عليك ولا عتاب، أستطيع أن أتَفَهَّم الأمر....

كنتُ انتقلتُ فجأة من موضوع كشمير، إلى موضوع شخصي بيني وبينها، سَمِعَت كل ذلك مني، وسكتت طويلا، تبادلنا النظرات مرة بعد أخرى، أنتظر منها الجواب، وتريد هي أن تتحدث، بيد أن أمرا ما يُلجمها، تفتح فاهها للحديث، وتحرك يديها كأنما تريدُ أن تقول، ولا تقول شيئا، نظراتها الخجلى، والقلق البادي في عينيها، واحمرار وجنتيها... نطقت بعد التردد، وقالت:

- هل تعلم تبعات ما تقول؟

- نعم، أنتِ في أسرة هندوسية، وأنا مسلم، كشميري، وفوق ذلك باكستاني، وأنتِ كشميرية هندية، تجمعنا الجغرافيا والعرق بما أننا كشميرِيَّيْن، ولكن الحدود تفصلنا، ويقصينا التطرف والتشدد السياسي والديني، في الظاهر من المستحيل أن نجتمع تحت سقف واحد.. ولكن؛ يتطلب الأمر قرارا منكِ أكثر مما يتطلب مني، أنا باكستاني، وأعيش في السعودية منذ صغري، تستطيعين البقاء هنا.. في حمى آل سعود، دون أن يَمُسَّ أحد منك شعرة، غير هذا الأمر، فلعلك تُخبرينني بما يدور في خاطرك..

أعتقدُ أنني نقلتُ لها ما يدور في ذهنها حرفيا، ولعلها استرجعت أثناء صمتها كل هذه الأمور، والدها المقتول على يد (أشوك)، وماذا سيكون موقف زوجته؟ وموقف (راج) معها، ولا أعتقد أنه سيسبب أية فوضى، بل لعله يساندها، كان هذا تقديري بناء على ما ذَكرَتْهُ لي ما بينهم من معاملة..

كشمير... بيت والدها الحقيقي..

هويتها الحقيقية، حبها لي...

كان من الطبيعي أن تفكر في هذه الأمور.. وأظن أنها كانت تتخيل كيف ستكون حياتها القادمة معيَ؟!..

لقد جرَّبَت مني صدقًا في القول والفعل، هل تستطيع أن تُراهن بحياتها مع رجل يُعتبر في نظر بلدها عدوا، وفوق ذلك باكستاني؟؟ أظن أنهم قبل أي تحقيق حتى سيقررون إدخاله السجن، واتهامه بالغدر والخيانة والعمالة والتجسس لصالح باكستان لو أمسكوا به وتمكَّنُوا منه على الأراضي الكشميرية..

أما أنا....

هل أستطيع الذهاب إلى كشمير المحتلة؟

كان عليَّ أن أحسب الكثير من الأمور، كيفية مفاتحة أهلها بالموضوع؟ هل سيقبل (أشوك) بباكستاني يسرح ويمرح في كشمير وهو ماضيه كله طعن في ظهر والد (صبيحة)؟ أظنُّ أن جميع الطرق السلمية لن تُسفر عن نتيجة...

- أمهلني قليلا من الوقت، عندي الكثير لأقوله لك ولأخي (راج) أيضا، وأعتقد أنه يستطيع أن يكون في صفنا، عليَّ أن آتي به إلى المدينة يوما، وأفاتحه في موضوعك، وماذا يمكنه مساعدتي في هذا الصدد، وأفكر أن أفاتحه بالحقيقة أيضا عن هويتي الحقيقية..

تذكر أنك في المرة الماضية أخبرتني عن تفتيش أغلفة مذكرات (أشوك)، قمتُ بذلك، وجدتُ من الدلائل ما يكفي لأن أقنع به (راج)، وأُقرِّر لحياتي ما أراه مناسبا، أغلفة المذكرات حوت أسرارا مكتوبة، كما أنني وصلت إلى مقتنياتهم الشخصية، وصورهم، وقمتُ بتصوير كل الوثائق والصور التي وجدتها، وهي موجودة في هاتفي، أظن أن اطلاعك عليها قد يساعدني في البحث، كما تساعد هذه الأدلة على إقناع (راج)، لذلك تأكد أنني سآتيك إلى المدينة معه، وسأخبره هناك أمامك بكل شيء، وحينها نقرر ماذا علينا فعله..

- هل أنتِ متأكدة أن (راج) لن يخذلك؟

- علاقتي معه تشهد أنه لن يخذُل، ولكن لا بد من المجازفة، وسأحاول أن أجس نبضه للمرة الأخيرة قبل الإقدام على أي أمر..

حضر الطعام، وأكلنا..

ولم يكن الطعام لي أو لها هو الأهم إنما اللقاء الذي أجد أنه حدَّدَ نوعا ما معالم حياتي القادمة معها..

لا أعتقد أننا سننال ما تصورناه بهذه السهولة، وأن الحب الذي أظهرناه سيكون طريقه مفروشا بالورود..

تذكرت البيتين المنسوبين للشافعي رحمه الله، وأسمعتهما (صبيحة):

كيفَ الوصول إلى سُعادٍ ودونها

قُـللُ الجِبـالِ ودُونـهـنَّ حُتوفُ

والرِّجلُ حافـيةٌ ولا لي مـركبٌ

والكـفُّ صفرٌ والطريقُ مخُوفُ

شعرتُ في هذه اللحظة أن الشافعي كتب هذين البيتين لي خصيصا، فكيف أصل إلى (صبيحة) ودونها قمم جبال كشمير..

والحتفُ أمرٌ واردٌ من قبل أهلها الهندوس، مع قلة الزاد، وعجز الحيلة، ووحشة الطريق!!..

نقلتُ كل ذلك إلى (صبيحة) حرفيا، نَظَرَتْ إليَّ نظرة العاجز عن فعل شيء، فيما أشرتُ بعينيَّ إلى الأعلى، ورفعتُ المُسبِّحة إلى السماء، وطمأنتها بالله.. خرجنا واتجهنا إلى حي العقيق بحثا عن مقهى، رأت (صبيحة) مقهى (Yo!)، وأعجبها لون هويتها الأصفر، فطَلَبت أن نحتسي القهوة فيها.. أمضينا وقتا، ثم أعدتها قريبا من بيتها حيثُ طلبت..

(٣٦)

قررت (صبيحة) أن تزورني المدينة مع أخيها (راج)..

وأخبرتني أنها في هذه المرة ستدخل (المدينة المنورة) حتما...

قلتُ لها: لم أُغيِّر رأيي بعدُ عما سلف معكِ في هذا الموضوع، فردت بأنَّ من حقك أن تبقى على رأيك، ومن حقي أن أقول وأُقرِّر ما أشاء..

لقد قالت كلاما مبهما جعلتني أضرب أخماسي في أسداسي، ولم أرد عليها أو أستفسر منها قصدها، وقلت لها أنني سأنتظرك، وأهلا بك، وبأخيك..

بعد أسبوعين أخبرتني عن رحلتها والتفاصيل المتعلقة بها..

وأنها حجزت غرفة لها ولأخيها في فندق المطار، وليس عليَّ أن أستقبلها كما حدث في المرة الأخيرة..

ذكرت لي أنه بإمكانك أن تأتي في الوقت الذي يناسبك..

وبالرغم من ذلك ذهبتُ لاستقبالهما بعد منتصف الليل موعد وصول رحلتهما..

وفرحت لها..

ولأخيها...

ورحبت بهما، وأوصلتهما إلى الفندق، وعُدتُ إلى البيت بعد أن أخبرتهما أنني سأنتظر اتصالكم متى ما استيقظتم، حينها سآتي إليكم، كما طلبت منهم أن يخبروني عن الأكل الذي يفضلونه...

(٣٧)

اتصل بي (راج) الساعة الرابعة والنصف مساء، وأخبرني أنهما سينتظرانني في الساعة القادمة، وأبلغني عن الأشياء التي يحتاجها، جلبتها معي، وصعدت إلى مقر سكنهما في فندق مطار المدينة المنورة، وجلستُ أمامهما، وقد فردت السفرة على الأرض في جانب من الغرفة، وشاركتهما الأكل، وتجاذبنا أطراف الأحاديث، ثم حين انتهينا جلسنا حول الطاولة وكأننا في نقاش سياسي ومصيري مهم..

والحقيقة أنه كان مصيريا، وسألت (صبيحة) ما العذر الذي قدمتماه لوالديكما هذه المرة؟ ابتسما معا، وقالا أننا أبلغناه وطلبنا منه زيارة جدة قبيل العودة إلى (كشمير)، ولهذا السبب (راج) معي، والحقيقة أنني كنت أريده هنا لأنقل له كل شيء أمامك..

حدق (راج) في وجه (صبيحة) بنظرات فيها من الغموض ما اكتنفه، ثم بَدَأتْ في سرد جميع المعلومات التي اجتَمَعَتْ لديها عن عائلتها، وعن أبيها الحقيقي، وعن قاتله، وكانت كلما تقول حقيقة تقدم دليلا عليه من واقع المذكرات التي كان يكتبها (أشوك)..

نظرتُ في وجه (راج) والذي تغيَّر أسى، واحمرَّ غضبا، وعجزتُ عن أن أفهم أن هذا بسبب الحقائق التي تسردها (صبيحة) أمامه ضد والده، أم بسبب اكتشافه وجه أبيه المزيف، والنفاق الذي يظهره أمام أبنائه...

(صبيحة)، وأنا.. كنا ننتظر أن يتفَوَّه (راج) بشيء، ولكنه ظل صامتا، بل ذهب إلى غرفة مجاورة، بينما بقيتُ أنا وصبيحة ننظر إلى بعضنا بعضا، ونتساءل بأعيننا وأيدينا دون أن نَتَفَوَّهَ بشيء..

عاد (راج) بعد دقائق، وقال لأخته (صبيحة) بأنه وجد جميع الأجوبة التي كانت تدور في رأسه، من ناحية اختلاف لون البشرة، وبعض الأمور التي كان يراها غريبة من عائلته تجاهها، وقال بأن لها الحق أن تفعل ما تشاء، وتتخذ ما تريده من قرار تجاه حياتها، وذكر لها أنه سيساعدها قدر استطاعته، كما طلب منها ألا تُفكر في إيذاء عائلتها، فما مضى لن يعود، ولكنه سيفعل المستحيل عوضا عن ذلك، وسيُبقي كل هذا في السر..

والتفت إليَّ، ونظر إلى وجهي لثوانٍ ثم شكرني على لطفي معه ومع (صبيحة)، وذكر أنني أعتقد أن (صبيحة) ستكون أمانة بين يديك، هذا ما أعتقده من سردها أمامي كل هذه الحقائق، والحقيقة أن (راج) كان شابا نبيها، رغم أنه لم ير من الدنيا الكثير...

أخذت (صبيحة) أخاها (راج) إلى الغرفة المجاورة، وتحدثا كثيرا بينهما، كنت أسمع أصواتهما دون أن أفهم عماذا يتحدثان، عادا بعد نصف ساعة إليَّ من الغرفة ووجداني منشغلا بتقليب القنوات التلفزيونية، بينما كانت أفكاري كلها مشغولة في الأحداث القادمة التي أتوقعها وأخطط لها..

أول المفاجآت التي لم أكن أتوقعها بل كان عليَّ أن أعمل عليها بعد أن نخرج مما نحنُ فيه، هو أن (صبيحة) ذكرت لي أمام (راج) بالطبع أنها تريد أن تدخل في الإسلام، بل استرجاع إرثها العقائدي بحكم أنها أصلا من عائلة مسلمة..

أظهرتُ فرحي بهذا الأمر وسروري، ونظرتُ إلى (راج) الذي أشارَ إليها بيديه أنها خيارها، ولا أمنعها... فقلتُ لها أنتِ مسلمة أصلا، فقالت:

- عليك أن تُلقنني الشهادة.

- أشهدُ..
- أشهدُ..
- أن لا إلٰه..
- أن لا إلٰه..
- إلا الله..
- إلا الله..
- وأشهدُ..
- وأشهدُ..
- أنَّ..
- أنَّ..
- محمَّدًا..
- محمَّدًا
- رسولُ الله..
- رسولُ الله..

هكذا قَطَّعتُ المفردات حتى يسهل عليها النطق، ثم ترجمتُ لها المعنى بالأردية، وقبل أن تطلب مني، قُلت لها هيا بنا نذهبُ إلى الحرم.. ضحكت، وقالت:

- قُلت لك خذني إلى المدينة، ولكنك رفضت، فقلتُ لك: أن القرار سيكون قراري..

- على الرحب والسعة بك، وبقرارك، وأنا الآن مُلزمٌ بأخذك ليس إلى الحرم النبوي فحسب، بل أطوف بك المدينة المنورة، وسأريك أيضا بعض المآثر الإسلامية، وأنقل لك تاريخها، وكذلك سنذهب إلى بعض الأماكن التجارية، ولو لديكِ أنتِ و(راج) الوقت سنذهب إلى (مكة) حتى تزورين البيت الحرام، وتطوفين الكعبة المشرفة.. سأفعل هذا من أجلك بكل سرور..
- شكرا يا فيصل، نعم لدي من الوقت ما يكفي، نحنُ أخبرنا والد (راج) أننا سنمضي أياما في جدة نستكشفها، ثم نعود إلى الرياض..
- حسنا هذا رائع.. هيا بنا نذهب.

أخرجتها معي بسيارتي، واتجهنا أول ما اتجهنا إلى الحرم النبوي الشريف، بينما بقي (راج) في الغرفة، وقد قلتُ له أننا سنعود في الليل، ابقِ هنا، وبإمكانك أن تأكل ما تريد، وتطلب ما تشاء، وإن أردت أي شيء من خارج الفندق أخبرني، سألبي طلبك على وجه السرعة.. شكرني بوجه بائس وحزين، وذهب إلى الغرفة المجاورة ليستلقي على السرير..

أعتقدُ أنني شعرتُ بالحرب النفسية التي تدور في داخله الآن، إذ أنه لم يكن يتوقع عن (صبيحة) كل هذا الإجرام الصادر من عائلته في حقها، ثم إنه لم يستطع أن يُنكر ما تحدثت به (صبيحة)؛ لأنه وجد كل شيء بخط أبيه، وصور عزَّزت حديث (صبيحة)، ولعله يعيش الآن في صدمة سيتعافى منها حتما بعد مدة، الأهم من كل شيء أنه وافق على أن تختار (صبيحة) مستقبلها دون أن يكون أي عائق، وهذا أمرٌ في الحقيقة يُحسب له، فقد كتم سرنا، وفوق ذلك أكد لنا من تلقاء نفسه أنه سيساعدنا..

وأجزم أن اللقاءات مع (صبيحة) والوقائع التي شهدناها معا كانت كفيلة أن نكون أكثر انبساطا أمام بعضينا..

الكُلفة التي كانت بيننا انتهت تقريبا، نظرتُ إليها فابتَسَمت، وابتسامتها هذه كنت أريد أن أرى على شفتيها مجددا منذ أن رأيتها أول مرة، كما أن نظراتها كلها كانت نظراتُ امتنان وتقدير..

وقلت لها أن عقبة واحدة أزلناها معا، وهي معرفة الحقائق عن والدك، ثم إشراك (راج) في الأمر، كما أنك زدتيني فرحا وسرورا على ما اتخذتيه من قرار بالعودة إلى الإسلام، وها أنتِ ذا تجنين أول ثماره، سترين المدينة، ستزورين الحرم النبوي، وبعدها ستتجولين في المدينة وأطرافها.. ولاحقا ستطوفين بالبيت العتيق.. سترين الأُبَّهة والجلال في هاتين البقعتين المباركتين..

قلتُ ذلك وأنا أُدرك في نفسي أن المرحلة القادمة هي مرحلة خطيرة، فإذا ما اكتشف (أشوك) ماذا حصل خلفه، وماذا استجد في حياة (صبيحة) سيكلفها ذلك الكثير، وقد تكتُب نهايتها بيديها..

ذلك الأفَّاك الذي لم يرحم والدها المسلم، كيف سيرحمها وقد اكتشفت سره الدفين بين طيات مذكراته..

ما الذي سيقوم به إذا علم عن علاقتي معها؟ لا أعتقد أنه سيُرحِّب بهذا الأمر، رجلٌ قتل والد صبيحة على أساس عقيدته الدينية والسياسية، وهو هندوسي، كيف سيقبل بكشميري مسلم؟؟

لن يتقبل الفكرة من أساسها.. أعتقد أنه سيغضب جدا، هذا إذا لم يُقرر حبس (صبيحة)، بل والتخطيط لقتلها..

لم أستبعد أفكاري هذه، نحو الجالسة بجانبي، والمبتسمة إليَّ، والتي بالتأكيد لديها مخاوفها ولكنها تحاول إخفاءها الآن كما أفعل أنا تماما في لحظة اتجاهنا نحو الحرم النبوي الشريف، كنتُ أدرك تماما أن الطريق ليس بيسير، ولكني سلكْتهُ وسلَكَتهُ (صبيحة) معي، وسنرى نهاية هذا القرار الذي لا أستطيع أن أقول أنَّه عاطفي، ولا أنه عقلاني..

هو صراع بين العاطفة والعقل، وهو قمار بحياتها وحياتي أيضا، لا أستطيع أن أتزوجها في المملكة، القانون لن يُجيز ذلك، ولا تستطيع هي الذهاب إلى باكستان، كل الطرق كانت تؤدي إلى كشمير..

وكشمير أود أن أزورها مهما كانت الصعاب، فهي حلم كل مقاوم من أجل وطنه ومنافح عنها، وأود أن أذهب هناك، ونرى كيف يمكننا إخراج (صبيحة) منها، والذهاب بها إلى باكستان، والزواج بها هناك..

كنا نختلس النظرات إلى بعضينا، إلى أن حَدَّثْتُهَا عند وقوفي السيارة أمام الإشارة أن انظري إليَّ، حدِّقي في عينيَّ كما تشائين، هل تبحثين فيهما عن أجوبة لأسئلتك التي لم تر السبيل إلى شفتيك؟ أم عن الحب؟

سليني عن كل شيء، وحدثيني عنك، عن كشمير، عن أمانيك، عن خططك المستقبلية.. ابتسمت في حياء، وقالت:

- حاليا أريد أن أذهب إلى الحرم النبوي، أخبرني ماذا عليَّ فعله.

كنتُ قد وضَّأتُها في فندق المطار، فطفقتُ أشرح لها ماذا عليها أن تفعل، وطلبت منها أولا هاتفها لأقوم بحجز موعد لزيارة الروضة الشريفة من خلال تطبيق (توكلنا)، بيد أن الإشارة اخضرت فشرعتُ في توجيهها لحجز الموعد..

وصلنا إلى الحرم النبوي أوصلتها إلى باب علي بن أبي طالب وأخبرتها أن عليها أن تبحث عن أي امرأة تتحدث الأردية وتستفسر منها كيف الوصول إلى الروضة الشريفة، كما أرسلت على جوالها صيغ الصلاة والسلام، وعلمتها كيف تصلي ركعتين وماذا تقرأ...

زيارتها هذه زيارة فتاة لا تعرف ماذا عليها أن تفعل، ولكني وجدتها فرصة لترى المسجد النبوي، ثم المدينة المنورة وأطرافها.. كانت سعيدة بحق، وعند عودتها دُرت حول الحرم النبوي الشريف بالسيارة كي أريها بعض المساجد والآثار القريبة من الحرم، ثم أخذتها إلى جبل أحد، وسيد الشهداء، والقبلتين، وقباء، ومسجد الجمعة، ومسجد الفتح وبقية المساجد الموجودة حوله، كما أنني خصصت وقتا معها للذهاب إلى (النور مول)، و(الراشد مول)، كنا سعداء، وكانت كلما تشتري شيئا لنفسها تشتري أيضا لأخيها غير الشقيق (راج)، ربما أردات أن تُطمئنه أن الأمور مهما تغيَّرت في حياتها سيبقى له قدره ومكانته لديها..

سألت (صبيحة) عما تحب أكله في المساء، أخبرتني أنها تشتهي (المندي)، فتذكرت مطعما لا زلت أرتاده منذ صغري، وهو (مطبخ الحزام الأخضر) الواقع مقابل شرطة أحد في الحرة الشرقية، طلبت منه، وعدنا بعدها إلى الفندق، إذ كان علينا أن نذهب إلى (جدة) حيث يبقى (راج) فيها، فيما (صبيحة) ستذهب معي إلى (مكة) لأداء العمرة، والصلاة في المسجد الحرام..

ورغم زيارتها المدينة إلا أنها لم تنبس ببنت شفة، ولم تُخبرني عن مشاعرها، ولم أسألها لأنها رأت المدينة ودخلت الحرم النبوي للمرة الأولى في حياتها، وفضَّلتُ أن أصمت حتى تتحدث هي بنفسها عن تجربتها الأولى هذه..

(٣٨)

وصلنا مطار جدة، وجهتُ (راج) نحو الفندق ليقيم فيه، فيما اتجهتُ مع (صبيحة) نحو محطة قطار الحرمين في المطار والذي يقع على خطوات يسيرة عقب الخروج من الطائرة والممرات، كنا قد حجزنا التذاكر لنتجه نحو مكة...

وفي مكة المكرمة...

دخلنا البيت الحرام في صمتٍ مُطبقٍ من كلينا، فلا أنا الذي فتحتُ فاهي للحديث في موضوع، ولا هي الأخرى تحدثت في شيء..

كنا كما الصخرة الصماء حتَّى بتُّ أخشى من صمتها، ولكني كنتُ أشرح لها بعض ما يتعلق بالحرم المكي، وكانت كلما رأتني أنظر إليها تبتسم على استحياء شاكرة، على أنني لمحتها مراتٍ عديدة أثناء الطواف والسعي بين الصفا والمروة تبكي وتحاول مسح الدموع من عينيها حتى لا أنتبه..

أجزم أنها في هذه اللحظات تكون قد استعادت حياتها القديمة، وفكرت في حياتها القادمة، ما كانت فيه، وما ستكون عليه، وقد تكون الآن في أضعف حالاتها النفسية، فهي لا تدري ما فعلته كان صوابا، أم أنها خاطرت بحياتها، ولا أظن في قرارة نفسي أنها ستعيش في صفاء وقد كشفت الكدر الذي كانت فيه، ويعيشه كل كشميري تقريبا بدرجات متفاوتة في كشمير المحتلة..

تُهتُ في خواطري وأنا بين الصفا والمروة، تارة أدعو الله أن يكتب لها الحُسنى في حياتها ويزيدها فضلا ومنة، وتارة أغفل عن كل شيء، عن الحرم، عن العبادة التي أؤديها، عن الناس حولي، وأفكر فيما ستكون خطوتنا التالية...

هذه المرة هي من نبهتني من شرودي الذهني، وذكرت لي أننا انتهينا من الشوط السابع، وكنت قد شرحتُ لها كيفية أداء العمرة، كما أنني اشتريتُ لها كُتيِّبا بالأردية فيه تفاصيلها..

كنا قد صلَّينا بعد الانتهاء من الطواف خلف مقامِ إبراهيم، أما بعد السعي جلسنا إلى جانب في الصفا، ودعونا الله، لا أعرف عما دعت هي، وجدتها تقلب في أوراق الكتيب، ثم وضعته في حقيبتها، وأخفت وجهها براحتيها، وبدأت تخفت بالدعاء...

أما أنا فلم أخشع في دعائي في حياتي مثل خُشوعي في تلك اللحظات... سجدتُ وكلي خضوع أمام الواحد القهار، السميع المجيب، مثل السَّائل المضطر على باب الكريم...

كنتُ على عتبةِ بابِ الله..

مُلحًّا عليهِ في دعائي مثل الطفل الحابي الذي يمسك بثياب أبويه طالبا منهما حاجته، سألتُ الله الخير لي، ولصبيحة، والتيسير.. ودعوتُ لكل من جال على خاطري بالخير..

كانت لحظات أردتُ أن تقف فيها الأرض عن الدوران، والزمان عن التقدُّم، وأن أعيش بقية حياتي مُخلَّدًا في هذا الاطمئنان..

لا أعلم كم من الوقت بقيتُ ساجدًا، فعندما رفعت رأسي وجدتُ صبيحة تنظر إليَّ بثغر باسم، وعينانِ فيهما من السؤال ما فيهما، ويدان تظهران الحيرة... لم أتحدَّث لأنني كنتُ أعيشُ الطمأنينة التي لم أشعر بها منذ زمن طويل.. اكتفيتُ بابتسامة، وأشرتُ إليها بالمشي..

خرجنا من الحرم المكي من باب الملك فهد، واتجهنا إلى الفنادق المقابلة بحثا عن المطاعم فيها سدا للجوع، سألتها ما الذي تشتهيه، ذكرت لي أنها تود أن تأكل (البيك)، ابتسمتُ فخيَّرتُها بين الأكل في مكة، أو حين العودة إلى جدة، ذكرت أن من المناسب أن نعود إلى جدة لنُشرك (راج) في الأكل أيضا..

مضينا نجول في مكة بعضا من الوقت، أُريها الآثار الإسلامية التاريخية وقد شرحت لها أثناء الطواف والسعي كل ركن من أركان الكعبة، والحجر الأسود، والملتزم، والميزاب، وباب الكعبة، وزمزم، والصفا والمروة، وقد حان الآن لأريها خارج البيت الحرام مكان ولادة النبي صلى الله عليه وسلم، وغار حراء، وغار ثور، واكتفيت بذلك قائلا لها أننا سنعود إن شاء الله آمنين مطمئنين، ونرى كل شبر في المدينتين المقدَّستين معا.. هزت رأسها راضية، فأدرتُ سيَّارتي الصغيرة المستأجرة نحو جدة..

في الطَّريق ذَكرَت لِي أنني كنتُ صامتة لأنني كنت أعيش في داخلي تقلبات نفسية، استذكرتُ كل ما مضى من حياتي، تخيَّلت كيف لو كان أبي حيًّا، وأمي بجانبي وأخي.. واستحضرتُ ما حدث معي منذُ صغري، وعشتُ اللحظات التي دخلتُ فيها في الحرمين الشريفين..

كنتُ مطأطأة رأسي لأنني شعرتُ للمرة الأولى في حياتي بالطمأنينة والسكون، صحيح أنني ولدتُ مسلمة، ولكن الشعور الكامل بالاسلام لا أظنُّ أنني وصلتُ إليه بعدُ، أحتاج إلى الكثير من العلم والمعرفة التي غُيِّبت عني.. أحتاج منك أن تُخبرني بين الفينة والأخرى عمَّا يجب عليَّ فعله، وكيف أمضي حياتي...

قلتُ لها أنه يجب عليها أن تحتاط في حياتها، وألا تظهر عودتها للاسلام، وأن تصلي الصلوات في خفاء..

ولا أدري لماذا شعرتُ للمرة الأولى أنها يجبُ ألا تضع كل ثقتها في أخيها (راج)، لم أُرد حينها أن أزعزع ثقتها فيه، بيد أنني عقدت العزم على أنني سأنبهها في لحظة مناسبة..

وصلنا جدة، أخذنا (راج) معنا، وطلبنا البيك، وجلسنا على الكورنيش نمضي الوقت المتبقي في جدة معا..

لم أشأ أن أتحدث أمام (راج) بأي أمر، فضَّلتُ الصَّمت إلا من حديثٍ في أمورٍ عابرة، سألتُ (راج) عن تجربته في السعودية، وعن تعامل السعوديين معه بشكل عام، وسألته بعض الأسئلة التي أردتُ أن أستشف منها ثقتنا فيه...

صحيح أنه كان نبيها، ولكن النباهة لا تعني أنه أمينٌ سيحفظ الأسرار، وأنَّه سيبقى كاتما لها حتى النهاية.. ووجدتُ في ثنايا كلامه لوثة من أفكار أبيه ما جعلني أتمسَّك برأيي فيه..

كنا نظنُّه معتدلا في عقيدته، بيد أن هذا الشيء لا يمكن لأحد مهما بلغ من النباهة والذكاء أن يُخفيه، تفضحهُ الكلمات، أو الايحاءات، أو نظرات عينيه حتى...

لقد كان والده صديقا لوالد صبيحة، وجارا مؤتمنا، لكنهُ في نهاية الأمر جارَ عليه حين تعلَّق الأمر بالعقيدة، والسياسة، والوطنية المزعومة.. وسلب منه ما يملك مستغلا ثقتهُ، وقتله.. فكيف يمكنني أن أَثق فيه وهو صنو أبيه..

طرحتُ عليهِ سؤالا في العقيدة الهندوسية مازجا حديثي بأحقية المسلمين بالحكم في كشمير واستقلالهم السياسي والفكري، وأن الهندوس فيه أقلية، واحتلالهم غير مشروع، وينافي القرارات التي اتخذتها الأمم المتحدة في تقرير حق المصير... وعدم أحقية النظام الهندي في فرض الرأي على الكشميريين...

وقد وجدت رده حادًّا كما توقعت، أقرب إلى موقف حزب الشعب الهندي المتزمِّت، بل المُتطرِّف الممزوج بفلسفة منظمة التطوع الوطنية الهندية الشهيرة بـ(RSS) وتأكدت حينها أننا أخطأنا حين أشركنا (راج) في سرِّنا..

كما أنني استشفيتُ من حديثي معه أنه متأثر بنظريات هندوسية بحتة تجاه الكعبة المشرفة والتي يدعي فيها الهندوس أن الكعبة معبد هندوسي سرقه مسلمون، وأن إحرام المسلمين الأبيض إنما هو شبيه بملابس النُّساك الهندوس البرتقالية، وغيرها من المواقف الهندوسية المُتَزَمِّتة..

وألفيت أن كلامه كله مكرر من الطرح الإعلامي الهندي الممنهج، والمنطوي على شحن الكراهية، والتفوق العرقي، والتطرف الديني..

أشرتُ خُفية إلى (صبيحة) بأن تنتبه إلى حديثه، وأظهرتُ قلقي من خلال نظراتٍ مختلسة، فأبدت امتعاضها من حديثه بأن قطَّبت حاجبيها، وزمَّت شفتيها..

كانَ عليَّ بعد أن اتضح لي الخطأ الذي وقعنا فيه أن أخطط حتى لا يحيطنا هذا البلاء.. كما أنني وجدت مدخلا للحديث مع (صبيحة) عن (راج)...

أنهينا الطعام، وأخبرتهما بأن رحلتهما بقي عليها خمسُ ساعات، وأننا سنعود إلى الفندق، سنجلس قليلا ثم سنخرج إلى المطار، لتعودا إلى الرياض، أما أنا فقد حجزت لنفسي مقعدا في قطار الحرمين من محطة المطار، إلى محطة المدينة..

بعدما يقارب الساعتين كنا في المطار، نظرتُ إلى (صبيحة) وقد بدا على وجهها القلق مما اكتشفته، استغليتُ انشغال (راج) وهو يشاهد حوض الأسماك في مطار جدة الجديد، غبتُ عنها قليلا، وعدتُ، وقلت لها: لا تقلقي، ابقي كما أنتِ هادئة، وتصرَّفي كأنَّكِ تثقين فيه تمام الثقة..

سأخبرك ما يجبُ عليكِ فعلهُ..

وأخرجتُ من جيبي سبيكة ذهبية، وقلتُ لها:

- لا تسأليني الآن لماذا، ضعيه في الحقيبة، وسأخبرك السبب لاحقا... واعتبريه أنه المخرج من هذه المشكلة.. وسأستعيدهُ منك، قلتُ لها ذلك مبتسما في دهاء..

نظرت إليَّ في دهشةٍ دون أن تنبس ببنتِ شفة، وَوَضَعَتِ السبيكة في حقيبتها، ناديتُ (راج)، وقلتُ له:

- شكرا لك على كل شيء، هذه بطاقتك وبطاقة أختك للصعود إلى الطائرة، وهذه أختك خذها إلى صالة الانتظار، أما أنا فسأتجه إلى محطة القطار... آمل أن نلتقي قريبا مرة أخرى..

شكرني على كل شيء، على المصاريف التي تحملتها من أجله ومن أجل (صبيحة)، والعطر الذي اشتريتُ له من المطار..

ابتسمتُ وودَّعتهُ..

وودعتُ (صبيحة) بابتسامة شعرتُ أنها باهتة ممزوجة بالقلق والخوف عليها..

هي الأخرى.. ودَّعتني بنظراتٍ خجلى، وعينانِ تُقسمان لي بأنها تحبُّني، وأنني أملها الأخير في هذه الحياة...

ابتعدتُ عنها وفي قلبي لها من الحُبِّ مثقالا لا يوزن، وعُمقًا لا يحاط، ابتَعَدَت عني، فشعرتُ أن شيئا ما يُنتزع مني، اخْتَفَتْ عن ناظري، وكأنَّ شمس اليوم قد غربت..

(٣٩)

كنتُ خططتُ كل شيء في غضون دقائق معدودة عما يجب عليَّ فعله..

بدا لي أنه من الضروري التمويه على (راج)، وخلط الأمر عليه، وإظهار أن كل ما فَعَلَتهُ (صبيحة) معي لم يكن إلا من أجل الحصول على المال..

كتبتُ رسالة على (الواتساب) على شكل نقاط...

أوضحت فيها أن تقول لأخيها (راج) أن هذه أيامنا الأخيرة في المملكة، كنت أريد أن أرى مكة والمدينة وقد فعلت، وحصلتُ على بعض المال، وكذلك السبيكة الذهبية..

وأخبرتها أن تعطيها له ليصنع منها سلسالا، وتسوق عليهِ أحاديث أخرى من وحي خيالها حتى تُقنعه بأن الأمر لم يكن إلا مضيعة للوقت، واحتيال للحصول على المال..

ثم تُخبره بعد يومين أن السبيكة لن تكفي لصنع سلسال فخم يستطيع من خلالها أن يكون متفوقا على أقرانه إذا ما جلس بينهم، وتُقنعه بإرسال السبيكة إليَّ مجددا قبيل السفر بأيام حتى أكون أنا من أصنع له السلسال متكفلا بالفاتورة...

ولقد فَعَلَتْ كل ذلك (صبيحة) حرفيا...

حتى أن (راج) كلمني بأن أصنع له السلسال...

فطلبت منه أن يرسلها لي عبر إحدى شركات النقل، ففعل..

أقفلتُ بعدها رقم جوالي..

وانتظرتُ حتى غادر السعودية نهائيا..

فيما بقيتُ على تواصل مع (صبيحة) من رقم آخر والتي طمأنتني أن (راج) شرب هذا المقلب..

وأخبرتني أنه كان متحسرا على إرسال السبيكة، وشتمك كثيرا حين كان في الطائرة..

وقد تأكدت حينها بأن تمويهنا له كان صائبا، وأن الحذر منه واجب..

استخرجتُ شريحة جديدة..

وطلبت منها أن تراسلني هي الأخرى من رقم جديد، وأن تراقب (راج) وإمكان حديثه مع أبيه عني وعنكِ..

وقلت لها أنني سأنقطع عنها لفترة مؤقتة..

فعلتُ ذلك لكي أحتاط من (راج)، حتى وإن أخبر أباه بشيء وراقب (صبيحة) لا يجدُ شيئا مني..

- ما دمنا غيَّرنا الأرقام، فلماذا طلب الانقطاع منك؟
- احتياطا ليس إلا، هذا لفائدتك أنتِ، افعلي ما أقوله لك، وكوني حذرة، عودي إلى حياتك كما كنتِ من قبل في كشمير، وانسي (فيصلا) لأشهر، سأتواصل معك بنفسي.
- حسنا.. قالت ذلك وهي في منتهى الإحباط من قراري.

(٤٠)

حاولت منع نفسي من التواصل معها احتياطا..

لأنني بِتُّ على يقينٍ أن (راج) سيخبر والده عما فعلته (صبيحة)..

كما أنني سمعتُ من الكشميريين أنفسهم ممن أعرفهم بشكل مباشر، أو حتى في التقارير الإعلامية أن الهواتف في كشمير مراقبة، وأن زرع الفيروسات في هواتف الآخرين للاطلاع على محتوى الأجهزة الذكية أمر بات مشهورا في الهند خصوصا بعد أن تسيَّد فيها نظام البراهمة الكهنوتي..

لذلك..

كان عليَّ أن أحمي (صبيحة) وأخدِّرُ (راج) ووالده (أشوك)، وأن أكسب هذا الوقت في التخطيط لإخراج (صبيحة) من (كشمير) ليس لأنني أحبها فحسب، بل لأنها طلبت مني أن أُخرجها من جهنم العبودية، من موطنها الأصلي، كشمير المحتلة..

قلتُ لها:

- أمستعدة أنتِ لتهجرين وطنك؟

ضحكت في بلاهة، ووصفتني بالساذج..

وأخبرتني أن وطنها قُتل داخلها مع مقتل أبيها..

وفُقد مع فقدها لوالدتها...

وهو سجن كبير ما دام أخي مسجونٌ في إحدى سجونه..

هل سيعود أبي حيًّا إلى حياتي؟

هل ستحضنني أمي يوما؟

وهل سيخرج أخي يوما ما من سجنه المجهول؟

إن عادوا في حياتي سأبقى فيه حتما، وإلا فأنتَ الوطنُ الجديد...

إن قبلتني..

شعرتُ مع هذه الكلمات يأسها الذي يسكن عيني كل كشميري جراء الرهاب الاجتماعي الذي يعيشون فيه، استعدتُ مواقفي مع الكشميريين الذين قابلتهم في حياتي..

طلبتُ من أحدهم وأنا في المدينة أن يستضيفني في كشمير، استفسر مني عن جواز سفري فأخبرته أنه باكستاني فاعتذر..

وأردت أن أهدي لبعضهم كتبا عامة فسألني عما إذا كان عليها اسم (باكستان)، ففتشت ووجدت أن الكتب مطبوعة فيها، فأسفَ على عدم قبولها خوفا من أن يتم اتهامه في كشمير بأن له صلة بباكستانيين، وأنه يحاول نشر الفكر الباكستاني..

أعين الكشميريين الذين قابلتهم دائما ما أجد فيها نظرات منكسرة، مرتشعة، فيها الجوى، والأسى، والشجن، على أنهم رغم ذلك لطفاء كريمون، مبادرون، ومستعدون للوقوف معك قدر استطاعتهم.. سرحتُ في خيالي، وعشتُ دقائق صائلا وجائلا في كشمير من خلال الصور، والأوصاف التي ينقلها الكُتَّاب والأدباء عن كشمير شعرا ونثرا، في نهاية الأمر كشمير وطني أيضا...

(٤١)

مرت عليَّ أربعة أشهر، كما لو كانت عقودا...

كنتُ اتفقت مع (صبيحة) أنني سأطمئنها من خلال إرسال رنين واحد فقط على الـ(Facetime) رأس كل أسبوع...

وقد فعلتُ ذلك..

وكانت تفعل الفعل ذاته إشارة إلى أن الأمور بخير..

ثم أخبرتها في رسالة أنني وضعتُ شريحة سعودية في المخبأ الصغير لحقيبة يدها، عليها أن تقوم بتفعيل تطبيق (Signal) عليها، وتراسلني منها، وقد فعلت كما كتبتُ..

تحدَّثتُ معها للمرة الأولى منذ أشهر..

كأنما عادت إليَّ الروح من جديد..

تلك الروح التي بقيت مُعَلَّقَةً بين خوف الفقد، ورجاء الوصل..

عودتها إلى كشمير بالنسبة لي عودتها إلى الجنة التي خَرَجَتْ منهُ..

بيد أن عودتها بالنسبة إليها.. العودة إلى جحيم مُستعرة..

كنتُ ولا زلتُ أرى كشمير من زواية عاطفية...

بينما تراها (صبيحة) من منطلق ما تعيشه، ويعيشه المسلمون هناك..

أخبرتها أنني أعد العدة لأن آتي إلى كشمير المحتلة، وأُخرجك منها، وأذهب بك إلى باكستان، ومن ثم سنقرر وجهتنا الأخيرة منها...

كنتُ قد خبأت عنها هذا الأمر، ولم أصارحها به، بعد أن قرأت الرسالة، أرسلت لي تقول:

- هل كنت مجنونا من قبل، أم أصابك الجنون حالا؟
- كنتُ مجنونا، ولا زلتُ، وسأبقى إلى أن أعيدك إما إلى باكستان، أو السعودية..
- ما تفكر به ضرب من الخيال، هذا يعني أنَّك تريدُ أن تأتي إلى حتفك..
- صحيح، ولكن الأعمار والأقدار بيد من قدَّرها جلَّ في علاه..
- والأسباب؟
- قد ننجح...
- قد نموت..
- الأمل والإمكان..
- بعض المعادلات لا تحتاج إلى أس القد، والأمل، والإمكان.. سهلة، واضحة، مفهومة... أعدِ النَّظر في قرارك..
- أعتقد أنه لم يبق لنا أي منفذ سوى ما ذكرت، إما أن تخرجي أنتِ، أو آتي أنا، ونخرج سويا.. أنا أريدُ أن أرى كشمير، ومبتغاي أنتِ.. هل توافقين أم لا؟
- إن كنت قرَّرت، فلن أعترض، فلنُجرِّب ماذا تُخبِّئ لنا الأقدار..
- جميل، أرسلي لي جميع الوثائق المتعلقة بأخيك المسجون، ووالدتك المفقودة، سنحاول أن نصل إليهما، عندي من السبائك الذهبية ما تكفي، وسنستخدمها..

- حقا، كيف؟
- انتظري، وسترين بنفسك، وآمل أن أنجح..
- كان الله في العون..

خلال الأيام الماضية بحثت عن جميع أرقام التواصل التي تخص أصدقائي في كشمير المحتلة ممن سبق وأن تعرفت عليهم خلال دراستي في بريطانيا..

وثقتُ في أحدهم..

واستأذنت منه في الحديث معه في أمر مهم..

وعندما ألمحت لهُ بالموضوع، منعني من ذلك، ومن ثم حظرني من الاتصال والتواصل عبر الواتساب..

لم أستغرب من موقفه..

فقد مررتُ به خلال المدة المنصرمة، عذرتهُ..

وفكرت في التواصل مع آخرين..

وكل من حاولت الحديث معه، كان الصمتُ هو الجواب المدوي..

تركتُ البحث عمن يخدمني في هذا الأمر..

وسلمتُ الأمر لله..

(٤٢)

بعد ما يقارب الأسبوع، وجدت على (الواتساب) رسالة قصيرة جدا بالانجليزية، من رقم إماراتي:

- فندق أرماني دبي، بعد غد، العاشرة مساء، إكرام بت.
- حسنا، شكرا، وأتبعتُ جوابي بأيقونَتَي الابهام، والزهرة.

إكرام هو نفس الشخص الذي حظرني، والذي كنتُ أثق فيه..

والظاهر من رسالته أنه في (دبي)، ويريدُ مني أن آتي إليه لأحدثه فيما كنتُ أود الحديث فيه..

لم أستغرب أنه حادثني من (دبي)، فقد عرفته ثَرِيًّا حين كان يدرس معي الإنجليزية في Burnley College بمدينة (مانشستر)..

أخبرني عن تجارة والده في (كشمير)، والتي نقلها إلى (دلهي) بسبب سوء الأمور في (كشمير)...

والده كان رجل أعمال..

عدد من الأعمال كان قد عددها لي، ولكني نسيتها...

المهم أنه سافر إلى دبي ليسمع مني، ولكني استغرب كرمه هذا من أجلي، أو أنه ربما أراد أن يرد معروفي معهُ أثناء دراسة الإنجليزية معا في بريطانيا، كنا نتعلمها معا في النهار، وكان يتعلم مني اللغة العربية يوميا، كما كنتُ أتعلم منه جملا من اللغة الكشميرية..

كنتُ قد اتفقتُ ورتَّبتُ جدولي معه، نجلس في المسجد بعد صلاة العشاء يوميا، ونتدارس بالترتيب آية قرآنية، فحديثٌ شريف، وشعر، ثم في النهاية قصة من الأدب العربي..

أشرح الآية ومعانيها، والحديث الشريف وسبب وروده، والشعر وشرحه، والقصة ومفرداتها، حتَّى بتنا بعد سنتين نتحدث العربية الفصحى معا، كان يتكلم العربية والأردية بلكنته الكشميرية..

أياما جميلة قضيتها معه..

يشكرني عليها دائما، وكنتُ أقول له:

- دعك من شُكري فإنني استفدتُ منكَ أكثر مما استفدتَ مني، زادت حصيلتي اللغوية في العربية، وزانت كتابتي أكثر.. وتعلمت منك اللغة الكشميرية، فالحمدُ لله، والشكر نقسمه بيننا، نصف لي ونصف لك...

كان يبتسم..

شاب جمع بين الوسامة، والأخلاق...

والعلم في شتى الجوانب..

في اللغة والاقتصاد..

اجتهد في طلب العلم، وورث التجارة عن أبيه.. نهل من كل منبع، وكان اسما على مسمى حين يدعو الناس إلى بيته، يُكرم الصغير، ويُجل الكبير... لذا بدأت أول ما بدأت البحث عن مساعدة منه، ولم يُخب ظني..

(٤٣)

حجزتُ رحلتي من (المدينة المنورة) إلى (دبي) على (طيران الإمارات)..

صباح اليوم الذي ذكر لي (إكرام) أنه سيقابلني فيه، في المساء كنتُ عنده، قابلني عند مدخل فندق أرماني بابتسامته العريضة هاشا باشا في وجهي..

وأول ما عانقني...

اعتذر مني بنبرة عاجزة..

وأخبرني أنه كان مضطرا لحظري خوفا من المراقبة..

ظننتك تطلب مني مساعدة في أمر آخر..

بيد أن الحديث في مثل هذه الأمور التي تريدها يعني نهاية الانسان في كشمير، ستسيء الدولة الظنون بي في حال اكتشاف أمري..

لذا حظرتك..

وأتيتُ إلى (دبي) لأسمع منك وجها لوجه..

- هوِّن عليك أخي، أنا من يعتذر عن ذلك، أما أنت فلك الشكر أن قطعت كل هذه المسافة، وصرفت مبلغا طائلا كي تسمع مني فقط... ممتن لك.
- لا يا أخي، أنا الممتن لك دوما، تذكر أنك علمتني اللغة العربية في بريطانيا، لقد استفدت منها كثيرا، وكونت علاقات تجارية بسببها في البلاد العربية، وهذا أثَّر إيجابا على تجارتنا، المهم دعك من ذلك، هيا نتناول الطعام، ونتحدث في الأمر الذي تريده..

(٤٤)

صعدنا معا إلى جناحه، وطلبنا ما وددنا تناوله، وبسطنا الخوان على الأرض رغم وجود كل أدوات الرفاهية في هذا الجناح..

كذلك كنا نفعل أثناء دراستنا في (بريطانيا) في بيته، أو غرفتي التي كنت أقطنها..

استعدنا ذكريات الدراسة..

وكيف كنا نخرج في نهاية الأسبوع إلى أطراف (مانشستر)..

ونتسلق المرتفعات..

وحين كان المطر يمنعنا من النزول كنا نحبس أنفسنا بالساعات في مغارة اعتدنا الجلوس فيها، ومعنا من الطعام الذي كنا نجلبه كلينا من مطعم يبيع الطعام الحلال..

بعد أن انتهينا من الطعام والأحاديث والذكريات التي جمعتنا في بريطانيا، جلسنا حول طاولة مستديرة في جانب من الجناح..

كان (إكرام) قد جلب معه المكسرات، والشاي، والعسل الكشميري، أهداني جميع ما جلبه لي، وشرعنا نعمل الشاي الكشميري كي نحتسيه عقب تناولنا الطعام..

على الرغم من ثرائه كان (إكرام) متواضعا ليس فيه غرور الأثرياء، وكذلك كان والده الذي قابلته مرة واحدة في (مانشستر) حين زاره..

شرعنا في الحديث عن موضوعنا الأهم..

(٤٥)

شرحتُ لإكرام جميع المراحل التي مررت بها..

والحقائق المنوطة بصبيحة..

ووعودي لها حيال والدتها وأخيها..

وجلبها من كشمير إلى باكستان..

ومن ثم إلى المدينة المنورة...

وذكرتُ له أنني أريد مساعدته في البحث عن أم صبيحة...

وعن أخيها القابع في سجون المحتل الهندي، ومن ثم إخراجنا جميعا من كشمير..

سمع مني كل ما قلته بصمتٍ مُطبق، ولكن حين قلت له: (جميعا)، نظر إليَّ في ذهول، وسأل:

- وهل ستكون هناك؟
- نعم، سأكون هناك، أريد أن أرى كشمير، وفي ذات الوقت أود أن يعودا رفقتي..
- هذا ضربٌ من الجنون..

أستطيع أن أساعدك في البحث عن والدتها، وأخيها، أما إدخالك إلى كشمير، وإخراجك منه، فهذا ما لا أقدر عليه...

من سابع المستحيلات يا (فيصل)، إلا إن كان لديك أقارب لا زالوا يقطنون في أي منطقة من مناطق كشمير..

- أقاربي موجودين فيها، ولكننا منقطعون عنهم، لا نعرفهم إلا من شجرة العائلة التي جلبها لنا عمي (يوسف) حين زار (كشمير)، وتكفيني مساعدتك لي، أما الدخول سأتولَّى أمره بنفسي، والخروج ساعدني فيه قدر استطاعتك..
- متى ستأتي إلى كشمير؟
- حين تنجح في البحث عنهما، وتبشرني بذلك، سأقدم على خطوة الدخول إلى كشمير، لا أعرف مدى نجاحي فيها؛ لذا أود أن أفكر معك وأكتب جميع الاحتمالات التي قد أواجهها، حتى نخطو الخطوة المناسبة، ساعدني في هذا الأمر بما أنك تعرف الداخل الكشميري، وشرحتُ له أن المنطقة التي تقطن فيها صبيحة حاليا هي (كيرن) المحاذية لكشمير الحرة..
- أوه، (كيرن)؟ جميل جدا، أعتقد أن هذا سيسهل علينا كثيرا..
- كيف؟
- سترى ذلك، أمهلني حتى الغد، وسنجتمع مجددا، وسنتفق على جميع ما طلبته مني، والتي أستطيع مساعدتك فيها، بالإضافة إلى بعض الاحتياطات في المراسلة بيننا..
- حسنا (إكرام)، غدا موعدنا، وستتناول العشاء معي.

(٤٦)

استضفت (إكرام) في المطعم المندي اليمني السعودي في ديرة دبي، بالقرب من مبنى (دناتا).. أردت أن نتناول الطعام السعودي معا، وقد أعجبته الكبسة، وطلب مني العودة مرة أخرى إلى هذا المطعم، أو إلى أي مطعم آخر يماثله لنتذوق الأكلات السعودية..

انتهينا من الأكل، فاستخرج ورقة وبات يشرح لي كيف يمكنه مساعدتي، وعدد لي المتاعب التي سأواجهها في حال ذهابي إلى كشمير، وذكر أن ذهابي بطريقة قانونية فكرة سيئة، فكيف وأنت تريد الدخول إلى هناك بطريقة غير شرعية!!..

بدافع العاطفة كنت فعليا أود الدخول إلى كشمير كي أراها مرة واحدة على أقل تقدير في حياتي، وما ذكره (إكرام) من متاعب أعلم عنها مسبقا، وهو بمثابة القمار بالحياة، فإما أن أدخل وينتهي أمري إلى سجن من سجون كشمير، أو أُعتبر جاسوسا باكستانيا، أو أُقبر في أحد مقابر كشمير المجهولة، أو... تنقذني رحمة الله، وما أود القيام به لا يفعله إلا الذي لا تهمهُ الحياة، فهل حياتي فعلا لم تكن تُهمُّني؟! لم أكن ميؤوسا من الحياة، بل كنت أحبها ففيها الكثير من الجمال الذي لا ينبغي أن أخاطر من أجله بحياتي..

تفاصيل كثيرة ودقيقة تبادلناها، وسهلت عليَّ الكثير من الأمور، من ضمنها أنني وجدت في المنطقة التي أريد الذهاب إليها بيتا أسكن فيه، ورجلا سيكون حلقة الوصل بيني وبين الأمور التي أريدها، فقد كان لإكرام بيت في (كيرن)، يقطنه (شبير) وحيدا، ذلك لأنه مثل الكثير من الكشميريين فقد عائلته في حصار تم فرضه على منطقتهم لشبهة وجود مقاومة عسكرية من قبل شُبَّان كشميريين..

بيد أن الأمر لم يكن كذلك، إنما كان خلف البلاغ حقدُ هندوسي كشميري على الكشميري المسلم لخلاف تجاري بينهما، راحت ضحية هذا الخلاف عائلة (شبير)، أطفاله ونساؤه، فيما دُمِّر العقار عن بكرةِ أبيه..

أصبح (شبير) والذي كان في رحلة تجارية أثناء المداهمة في ليلة وضحاها من تاجر معطاء إلى عاطل محتاج، فقد قُتلت عائلته، وسُلب منه ما كان يملك أثناء التفتيش، ثم دُمِّر بيته، وكل هذا لمجرد الاشتباه في فرد من أفراد عائلته..

ذكر لي ذلك (إكرام) حين قال لي أن (شبير) سيساعدك فيما تحتاجه، كما اتفقنا على أن تواصلنا على (الواتساب) سيكون من خلال الأيقونات، وحددنا لكل أيقونة حرفا من الأردية، كي تظل الرسالة غير مفهومة في حال اكتشافها..

وقبل أن ننهي حديثنا، أشار إليَّ (إكرام) بالتفكير مليا في الذهاب إلى (كشمير المحتلة)، أخبرته أنني عقدت العزم، وسأختار أكثر الطرق اختصارًا إلى (كيرن)، وهو الولوج من الجانب الباكستاني الموازي لخط السيطرة بين البلدين..

لم أكن أعرف حتى تلك اللحظة كيف سأذهب، ومن سأطلب منه المعونة، ومن سيكون دليلي، فأنا لم أكن أعرف كائنا من كان في باكستان، ولا في كشمير الحرة حتى أطلب منه..

لقد قدَّر الله أن سهل أمور وجودي في كشمير المحتلة، ولكن ماذا عن ذهابي إليها...

كان عليَّ التخطيط والانتظار حتى يُشير (إكرام) إلى نجاحه في البحث والتقصي لوالدة (صبيحة) وأخيها، وذهابي هناك سيكون من أجل إخراجهم فقط، بالإضافة إلى أنني سأرى كشمير بعيني..

أخرجت من جيبي سبائك ذهبية لأعطيها (إكرام)، وطلبت منه أن يستعين بها في الأمور، بيد أنه رفض رفضا قاطعا، وقال لي بأن أعيدها إلى جيبي، لكي أستعين بها في كشمير المحتلة إن لزم الأمر، أصريت عليه، بيد أنه أبى بشدة، فشكرته، وقلت له بأنني سأظل ممتنا لك طيلة عمري لإحسانك هذا..

وقف فاتحا ذراعيه، وأشار إليَّ بالوقوف، وعانقني بحرارة، وذكر لي أنه سيفعل ما بوسعه من أجلي، فأنا أعز أصدقائه أيام الغربة.. شكرته بدوري، وخرجنا من المطعم، واتجهنا بحثا عن الشاي الكشميري والذي وجدناه في كافيه الرباش الواقع في الممزر بدبي، قضينا لحظات ممتعة معا، ثم افترقنا..

زرت صديقا آخر في دبي، وجُلتُ في أسواقها بحثا عن الشالات الكشميرية، سعيتُ دائما للوصول إلى الموردين لها حتى يمكنني الاتجار فيها، سواء من كشمير المحتلة أو كشمير الحرة، وصلتُ إلى عدد من الموردين الذين تعاونوا معي، وأردت أن أرى المنتجات الكشميرية والفروقات بينها بعيني، فقد علمتُ أن هناك تلاعب كبير بها، فالسوق يبيع منتجات لم تُصنع في كشمير باسم كشمير...

بعد أن نِلتُ مُنيتي من اللقاء بصديقي (إكرام)، وتجولت الأسواق، عدت إلى حيث إقامتي في (The H Dubai) كي أتهيأ للعودة إلى المدينة المنورة..

وبما أنني لم أكن أعلم كم من الوقت سأمضيه كنتُ حجزت من المدينة إلى دبي ذهابا فقط...

فتحت المحمول، وحجزتُ تذكرة الإياب على (الخطوط السعودية)، قلَّبتُ عددا من القنوات حتى ضجرتُ، قرأت أذكار ما قبل النوم، وسلَّمتُ نفسي لله..

(٤٧)

عدتُ إلى المدينة المنورة مساء اليوم التالي..

أهديتُ لأمي شال البشمينه الكشميري..

ووزعتُ بعض ما جلبت من الهدايا لأفراد العائلة كبيرهم وصغيرهم، استغربوا مني الذهاب والإياب بشكل سريع، قلتُ لهم أنني انتهيتُ من الأمر الذي كنتُ قد ذهبتُ بسببه؛ لذا عدتُ إليكم متشوقا..

أما أُمِّي..

فحين عاد الجميع إلى غُرفهم وبيوتهم انفردتُ بها في مجلس البيت، حيثُ كنا يوميا نجلس ونتناول الشاي بالحليب معا، أخبرتها بما سأُقدم عليهِ..

حملقَت في عينيَّ، ولم تنبس ببنتِ شفة، أما بناتُ أفكارها فأعرف تماما أنَّها تُريدُ مني ألا أُخاطر بشيء في حياتي، بيد أنها لم تمنع، بل أمسكت بيدي لثوان معدودة، ثم ابتسمت، وقالت:

- فليكن ما تريد، دعائي لك بأن يحرُسك الله من كل سوء ومكروه... ولكن انتبه على ما تقدم عليه، وكن حذرًا في خطواتك، أريدُ أن أراك في خير حال..

طلبتُ منها ألا تُخبر أبي بذلك، وتوحي له أنني سأذهب إلى باكستان للالتحاق ببرنامج الزمالة والذي سجلتُ فيه في الآونة الأخيرة في الجامعة الإسلامية العالمية بالعاصمة الباكستانية الجميلة إسلام آباد...

وَفَعلَت مثلما اتفقتُ معها..

(٤٨)

بعد ما يقارب الأسبوعين تواصل معي (إكرام) مشيرا إلى أن الأمور على ما يُرام، وقد رتب ما وعدني به، وأن عليَّ التحرك للخطوة التالية..

كنتُ خلال الأسبوعين الماضيين أثناء انتظار رسالته جهزتُ نفسي للسفر إلى باكستان...

بحثتُ عن التذكرة التي تُناسب خط سيري..

اخترتُ هذه المرة (الخطوط القطرية) لأنها كانت تذهب مباشرة من الدوحة إلى مسقط رأسي في باكستان (فيصل آباد)..

أردتُ اللقاء بأفراد العائلة الذين لم ألتقِ بهم منذ سنوات..

كذلك أردتُ أن أرى قبر جدتي لأمِّي التي حين كانت تسكن معنا في المدينة المنورة استحلفتني ألا أنساها إن ماتت هي، ولا بد لي من الوفاء..

كما أنَّ خالتي والتي جمعتني بها علاقة كريمة كانت قد انتقلت إلى رحمةِ الله منذ سنتين، ولم يتسنَّ لي حضور مراسم عزائها في باكستان..

أردتُ أن أصل الرحم مع الجميع مستفيدا من سفري هذا، لذا (فيصل آباد) كانت محطتي الأولى..

الحقيقة أنني أرضيتُ نفسي قبل أن أرضي غيري..

فلم يكن يُعجبني الانقطاع عن الأقارب والأصدقاء طويلا..

(٤٩)

أوصلني أخي إلى مطار الأمير محمد بن عبد العزيز، ابتعتُ بعض الأشياء من (متجر صُنع المدينة) لإهدائها إلى بعض الأصدقاء، استقليت الطائرة إلى مطار حمد الدولي بالدوحة..

كان بيني وبين الرحلة التالية المتجهة إلى مطار (فيصل آباد) الدولي ما يقارب الثماني ساعات...

فكرت في الخروج من المطار كي أرى (الدوحة) للمرة الأولى لأسجل في ذكرياتي وجهة جديدة أزورها، اتجهتُ إلى موظفي الخطوط القطرية، وقدمتُ لهم جواز السفر الباكستاني وتذكرتي، وأظهرتُ نيتي في رؤية الدوحة وقضاء بعض الساعات فيها، وطلبتُ منهم المساعدة في الحصول على التأشيرة...

بيد أنهم لم يسمحوا لي بذلك، ووجهوني إلى جوازات المطار لأتحدث معهم شخصيا، فيما رأيتهم وهم يساعدون آخرين للحصول على التأشيرة..

أخرجتُ من رأسي فكرة الخروج من المطار...

وآثرت الجلوس على المقاعد المخصصة للاسترخاء..

فتحتُ المحمول..

قرأت الأخبار..

شاهدتُ بعض المسلسلات، صليتُ الفروض، أكلتُ ما بدا لي أكله، واحتسيتُ من المشروبات الساخنة ما احتسيتُ، ونُمتُ قليلا حتى أُعلنَ عن الرحلة المتجهة إلى (فيصل آباد)..

(٥٠)

فيصل آباد..

مدينة سُميت على مسمى العاهل السعودي الملك فيصل رحمه الله، والذي كانت تربطه بباكستان صلات وطيدة..

في سبتمبر ١٩٧٧م محت باكستان من سجلاتها اسم مؤسس المدينة المحتل البريطاني (لائل)، وثبَّتت على صدرها وسام أخٍ سعودي كان قلبه ينبض وفاء تجاهها، وكل باكستاني اسمه (فيصل)، على الأغلب يُسمَّى بفيصل تيمنا بالعاهل السعودي..

نزلتُ في مطارها الصغير نوعا ما مقارنة بمطارات باكستان الأخرى، كان المطار سابقا غير مهتم به، ولا يعكس قيمة المدينة الاقتصادية، إذ أنها ثالث أكبر مدينة باكستانية، كما أنها صناعية، وهي مدينة الغزل والنسيج..

بيد أنني في هذه المرة وجدت اهتماما به، فقد تم توسيعه، وتحسين خدماته..

انتظرت دقائق..

أخذت أمتعتي..

واتجهت صوب موظف الجوازات والذي حملق في وجهي قليلا، سمعتُ أثناء نظره إليَّ صوت تختيم الجواز، فيما تمتم باللغة البنجابية مبتسما:

مرحبا بك، ابتسمت في وجهه، وشكرته، وخرجتُ..

صديقي العزيز وصديق والدي (داود) والذي للتو جاوز الستين من عمره كان في انتظاري..

هو في الحقيقة مالك لإحدى مصانع الغزل والنسيج في فيصل آباد..

فارق العمر بيني وبينه ما يقارب خمس وعشرون عاما، لكننا محونا هذا الفرق، وأصبحنا أصدقاء...

كلما قدمتُ إلى فيصل آباد أسكن عنده..

فيما إذا زارني (المدينة المنورة) نمضي الأيام فيها معا..

خرجنا من مطار فيصل آباد الدولي، متجهين إلى حي (رضا آباد)، مرورا بشارع (جهنگ)..

دخلنا منتصف المدينة، أراد أن نفطر في مكان شعبي، لكني منعته عن ذلك، وقلت له لست أشتهي طعاما..

اتجهنا إلى محل عصيرات (چاغي) الشهيرة..

طلب عصير (الرمان)، فيما طلبت أنا عصير (الفالسه)، وهي فاكهة محلية طعمها ما بين حلو وحامض..

بعد ارتشافنا العصير...

عدنا مجددا إلى منتصف المدينة وبالتحديد عند الساعة القابعة في منتصف البازارات الثمانية والتي صُمِّمت على شكل علم انجلترا، وهي من بقايا الاحتلال البريطاني لشبه القارة الهندية..

جال بسيارته قليلا ليريني التغييرات التي حصلت في المدينة..

ثم اتجهنا إلى بيته...

أهديت له جالون زمزم كما كان طلب مني، وتحدثنا كثيرا حتى المساء، وبما أنه كان صديقي الوحيد والوفي في باكستان شرحت له كل شيء، أخبرته بقصتي مع (صبيحة) وأوضحت له ما أنا جئتُ من أجله باكستان..

كان صامتا وأنا أحكي له التفاصيل، ولما انتهيت من حديثي، رمقني بنظراتٍ ساخطة نوعا ما، تبع ذلك التوبيخ الذي كنت أتوقعه منه، ومحاولته منعي عن الإقدام بشيء فيه خطورة على حياتي، شرحتُ له التفاصيل لأطمئنه، لكنه أراد أن يستحلفني ألا أفعل شيئا، فأبيتُ وقلتُ له لقد رتبت كل شيء..

أشاح بوجهه عني...

ولاحظتُ دون أن يدرك مسحه لدموع عينيه، وقد فهمت سبب ذلك، حيث أن سبب محبته، وقربه مني في الحقيقة كان بعد أن توفي ابنه عثمان رحمه الله في ريعان شبابه مصابا بالسرطان..

وكان يرى في شخصي صورة ابنه ذلك...

وقد شاطرني بعد وفاته كل أسراره وأحزانه، كما كان يطلب مني بعض الآراء ويستأنس بها كما كان يفعل مع ابنه..

قام من مكتبه..

وربت على كتفي، وأراد أن يخرج دون أن ينبس ببنت شفة، قُمتُ من مكاني، وأخذت يده في يدي، وقبلتها، وكنتُ أفعل ذلك بين الحين والآخر احتراما له، واظهارا لودي تجاهه، وقلت له: لا تغضب، لم يزد على قوله: سنتحدث غدا.. وخرج بسيارته إلى بيته الآخر، فيما تركني بعد أن جهز لي خادمه غرفة في هذا البيت..

(٥١)

اتصل بي صباح اليوم التالي وهو عائد إلى مكتبه يسألني عن الفطور الذي يجب أن يجلبه لي من بيته..

فطلبت منه الجبن والزيتون، والخبز الأسمر مع البيض، أما الشاي بالحليب فسوف يهتم بشأنه خادمه..

بعدما يقارب النصف ساعة...

دخلت سيارته مرآب البيت...

خادمه كان مستعدا لفتح باب البيت الأزرق الكبير...

أما أنا فذهبت عند باب سيارته، وحالما فتحه صافحته، عانقته، فابتسم، وقال:

- أعرف أنك لن تصغي إليَّ في هذا الأمر، ولكن كن على حذر، ولا تتأخر هناك، وعندي ثقة بحفظ الله لك، وستعود غانما بحول الله..

قال ذلك دفعة واحدة وهو يلتقط أنفاسه كما كانت عادته، وقد أصابه ضعف في جسده خصوصا بعد أن أجرى عملية جراحية لقلبه..

حتما ستجدني ماثلا بين يديك عما قريب بتوفيق من الله وحفظه، ودعواتك، وسأجلب معي زعفران من كشمير المحتلة هدية لك خصيصا..

فطرنا معا بعد هذا الحديث..

ومن ثم تحدثنا في أمور باكستان، واستشفيت منه أحوالها الاقتصادية، وكيف أثر ذلك على صادرات المصانع الباكستانية، فشرح لي ذلك باسهاب...

ثم خرجنا آن الظهيرة نجوب شوارع فيصل آباد...

كلما نمر بمكان يشرح لي إياه...

مررنا بفندق (سيرينا)..

و(نادي چناب)..

أخبرني أن هذا النادي يقصده نُخب المدينة من مدنيين وعسكريين والطبقة الحاكمة، كلما كنا نمر بمَعلَمٍ كان يذكر لي تفاصيله، فقد عاش في هذه المنطقة التي يقطنها وما جاورها منذ أن ولد..

مررنا بجامعة فيصل آباد الزراعية والتي نشأت عام ١٩٠٦م، والكلية الحكومية، ومعهد أيوب للبحوث الزراعية...

لم نترك معلما في المدينة إلا ومررنا عليه..

كذلك أخذني إلى بعض بيوتات المدينة التي لا زالت على حالتها القديمة منذ استقلال باكستان وقد أصاب الكثير منها الاهتراء.. هذه البيوت فعليا تُشعرني بالمأساة التي مرت بها شبه القارة الهندية في ١٩٤٧م حين استقلال باكستان عن الهند.. كثير من دمِ المسلمين قد سُفح في سبيل ذلك من قبل الهندوس والسيخ المتواطئين مع المحتل الإنجليزي.. استمتعت كثيرا بأحاديثه الشغوفة، تعلمت أسماء الشوارع، والأماكن العامة، والأكلات الشعبية وغيرها..

سألته بعد ذلك أن يمهلني بقية يومي حتى أستطيع أن أزور أقاربي، كما وددت أن أذهب إلى المقبرة المدفونة بها جدتي لأمي، وخالتي رحمهما الله، وقد فعلت كل هذه الأمور بقية يومي، وعدتُ مجهدا، ونمتُ..

(٥٢)

استيقظتُ قبيل الفجر، صليتُ ركعتين امتثالا لأمر أبي والذي يأمرني دائما بالصَّلاة والدعاء من الله قبيل الشروع في أي عمل...

حزمتُ حقيبتي...

خرجتُ ووجدتُ (الرِّكشه) واقفة في زواية من زوايا الشارع، سلمتُ عليه، وقلتُ له باللغة البنجابية أن يتجه إلى (محطة دايوو) الواقعة عند منعطف (مستشفى ألايد) في فيصل آباد...

وأخبرته أن أجرتك هي مئتي روبية، أشار إليَّ بالركوب، وأوصلني إلى المحطة، أضفت له مائة روبية فوق أجرته، وقلت له: اشرب الشاي من طرفي...

شكر وابتسم، وولَّى بركشته مُدبرا...

اعتدتُ على أن من لا يجادلني في الأجرة أزيده...

ومن يستغبي ويزيد مبلغا فوق مبلغه الحقيقي أتركهُ...

عند شباك التذاكر طلبت من الموظف أن يقطع لي تذكرة إلى مدينة (راولبندي)، ومن هناك سأستقل أجرة (كريم) إلى (إسلام آباد)...

روالبندي مدينة مجاورة للعاصمة...

وتخطيطها عشوائي مقارنة بتخطيط إسلام آباد..

يجد الخارج من روالبندي والداخل إلى العاصمة فرقا واضحا في البيوت والشوارع والأشجار..

كنتُ حجزتُ غرفة في (فندق سينتوريس) الواقع بالقرب من مسجد الملك فيصل على بعد عدة كيلو مترات، على امتداد شارع ناظم الدين في منطقة F-8/4 وهو من أشهر فنادق إسلام آباد، بالإضافة إلى أنه مول تجاري معروف يقصده القاطنون في إسلام آباد الباكستانيون والدبلوماسيون..

صعدتُ الغرفة، صليتُ الظهر، وأجريت عدة اتصالات مع الأصدقاء...

كنتُ أود أن ألتقي ببعضهم لأرتب سفري إلى (كشمير الحرة)، إذ لم يسبق لي الذهاب إليها، وقد كنتُ متشوقا لذلك....

ولكن شوقي للسفر إلى (كشمير المحتلة) أكبر، ربما لأن موطني الأصلي والذي هاجر منه أجدادي يقع في ذلك الجانب..

فضلت أن أتناول غداءً شعبيا عوضا عن الطعام السريع المتاح في البناية المجاورة في المول...

لذا اتجهتُ بعد أن اتفقت مع بعض الأصدقاء إلى (ميلودي بارك) الواقع في G-6/3 خلف فندق إسلام آباد..

تجولت مع صديقي (زاهد) اليوم بأكمله، شاركنا بعد ذلك صديقا مشتركا اسمه (عمران)، وباتت أحاديثنا متشعبة بين الأدب العربي، والسياسة الباكستانية، والثقافات المختلفة في باكستان، البشتونية، والجلجتية، والكشميرية، والبلوشية، والسندية، كل أدلى بما لديه من معلومات..

تارة كنا نتحدث في الأدب الأردي، والفقه الإسلامي، ومن ثم نعرج ما يحدث حاليا على وسائل التواصل الاجتماعي الباكستانية والعربية، ونقارن بينها، وهكذا على الأغلب تكون مجالسي مع الأصدقاء..

عدتُ إلى الفندق منهكا...

استحممتُ بماء فاتر...

وشاهدت النشرة الإخبارية...

ثم استلقيتُ على السرير...

قرأت سورة الملك، واستسلمتُ للنوم..

استيقظت في اليوم التالي وصليتُ الفجر..

وبدأت في ترتيب سفري إلى عاصمة كشمير الحرة (مظفَّر آباد)، صديق من الوسط الإعلامي (واجد خان) كنت اتفقت معه على أنني سأزوره، وأن عليه أن يرتب لي بعض الأمور..

تواصلت معه عند العاشرة صباحا، ورتبت معهُ موعد السفر، إذ يتطلب الوصول إلى مظفر آباد ما يقارب الأربع ساعات، ومن ثم المحطة النهائية التي آمل الوصول إليها وهي (كيرن) سبع ساعات أخرى تقريبا...

لكنني خططت أن أبقى ليومين على الأقل مع صديقي الإعلامي، ثم أستشيره وأطلب منه إن كان يستطيع مساعدتي، وترتيب سفري إلى الوجهة النهائية..

عزمتُ..

رتبتُ حقيبتي...

وتوكلتُ على الله، قمتُ بحجز سيارة كريم لتقلني، كنتُ قد جلبتُ معي سبائك ذهبية لاستخدامها عند الضرورة، كما تأكدتُ من وجود مبلغٍ كافٍ معي.. وانطلقتُ..

(٥٣)

كنتُ أحد المحظوظين الذين أتوا إسلام آباد عند نهاية الشتاء وبداية الربيع هذا الموسم الذي لا تشعر فيه ببرودة الشتاء، ولا حرارة الصيف، بل تجد من جمال الخضرة، وألوان الزهور ما يأسر ناظرك، فتحت شباك السيارة، استمتعتُ بالهواء الطلق، أخرجتُ أكثر من مرة هاتفي، وصورتُ لقطات مختلفة من شوارع إسلام آباد، وجمعتها كمقطع صغير لأنشره على حسابي في (تويتر).. وصلتُ إلى محطة (فيض آباد)، واتجهتُ إلى شباك التذاكر، واشتريت تذكرة إلى مدينة (مظفر آباد)، عاصمة (كشمير الحرة)، اخترتُ مقعدا من المقاعد الأخيرة في الحافلة كي أستطيع أن أستلقي على ظهري، أو أنام على جنبي إن بقيت المقاعد شاغرة، اشتريتُ ما يمكنني تناولهُ أثناء السفر، كما كنتُ حملتُ الفصفص المصري الذي جلبته معي من المدينة المنورة..

جلستُ وانتظرت إلى أن حان موعد الانطلاق، مررنا أثناء خروجنا من إسلام آباد من عند تقاطع طريق (دوكري)، ومركز المؤتمرات الشهير، إلى (بهاره كَهُو)، داخلين إلى طريق اكسبريس، حيثُ وجدت لوحة كُتب عليها: (مظفر آباد: ١٤٠ كلم)، بالإضافة إلى أسماء أخرى، مثل: (مَرِي)، و(كُوهَاله)..بعد أن قطعنا مسافة قصيرة، بدأت المسطحات الخضراء تظهر على قارعتي الطريق السريع، دققت في الأشجار المزروعة فوجدتها أشجار الزيتون..

أطلتُ النظر فيها، سرحتُ أثناء ذلك في خيال أودى بي إلى المدينة المنورة، حيثُ كنتُ أخرج -خصوصا في يوم ماطر- نحو جزء من جبل أحد الواقع أمام (الحسن مول)، كنتُ أتسلق إلى نقطة معينة من الجبل إلى حيث أستطيع النظر إلى الاخضرار حولي، وإلى النخيل في الطرف الآخر، ومن ورائها الحرم النبوي الشريف..

بعدما يقارب الساعة والنصف انعطفت الحافلة يمينا متجهة نحو مرتفع، علمتُ أن هذه منطقة تسمى (زقاق جيكا)، أو ما يطلق عليه باللغة المحلية (جيكا گلى)، وصلنا بعد أن أخذت الحافلة تنعرج مع منعرجات الطريق حتى وصلت إلى أعلى نقطة في (مَرِيْ)، بل يعتبر هذا المقام -كما علمت- من أكثر المقامات السياحية ارتفاعا في المنطقة.. استبشرتُ لوجود السياح القادمين إليها بكثرة، وسعدتُ لأنني أحوج ما أكون إلى السعادة في هذا الوقت العصيب عليَّ، إذ أنني متوجه تقريبا نحو حتفي بإصرار مني نحو كشمير المحتلة من أجل إنسانة بتُّ أحبُّها كي أُنقذها...

استعدت اللحظات التي مررت بها مع (صبيحة) وأنا أُحملق في وجوه الناس، ابتسمتُ لبعضهم، أما الذي كانوا يحملون على عواتقهم أطفالا فكنتُ أخرج لبعضهم لساني تارة، فيما أقوم بتدوير عيناي لآخرين تارة أخرى.. المنطقة التي كنا نمر بها تعتبر من أقدم المناطق في (مري) والتي عمَّرها الانجليز أثناء احتلالهم لشبه القارة الهندية مِصْيَفًا لهم، كما تعتبر من أهم المناطق السياحية والتجارية في المنطقة، توجد فيها على اليمين والشمال مراكز للقوات الجوية الباكستانية وكذلك القوات البحرية، ومراكز علمية شهيرة..

بعد أن كنا على مرتفع حان الوقت كي نتجه نحو كشمير الحرة منحدرين، ألفيت عن يميني وشمالي أشجارا ذات قامات طويلة، سألت الشيخ الجالس بجانبي عنها، فأخبرني أنها أشجار الديودار، والفر، والكائل، أعمارها فوق المائتي سنة، وأن الغابة التي نعبرها تعيش فيها الأسود، والنمور، والفهود، والثعالب، والضباع بكثرة، المسافرون العابرون هذه المنطقة في الليل يرونها أحيانا، تجاذبت معه أطراف الحديث، وعلمت أشياء لم تكن في علمي..

(٥٤)

قرأت أثناء المرور على الخط السريع أسماء مناطق عديدة، منها: (أوسياه)، ومن ثم (بهكواري)، و(بهوربن)، مرورا بمنطقة (ديول الأدنى)، و(ديول الأعلى)...

أوقف السائق الحافلة لما يقارب الربع ساعة كي يقضي الناس حوائجهم...

كان وقت الظهيرة قد حان..

صليتُ في المسجد الصغير الواقع قرب المطعم..

خرجت وتناولت الشاي الكرك، واشتريت قارورة ماء، وركبت الحافلة مجددا، وانطلقنا نحو وجهتنا كشمير الحرة..

بعدما يقارب الربع ساعة ظهر لنا جسر (كوهاله) وهو الواقع عند نقطة التقاء باكستان وكشمير الحرة...

رأيتُ عليه شاشة كبيرة يظهر عليها مقاطع لعرض جنود الجيش الباكستاني...

لاحظت تغيير المقاطع المسجلة لحظيا...

علمتُ من مشاهدة المحتوى أنه وضع للتعريف بكشمير والظلم الحاصل فيها على أهلها، بالإضافة إلى مقاطع تظهر جمال كشمير...

كنتُ قد جلبتُ معي بعض الكتب عن كشمير، منها: (سياحة في كشمير) لمحمد بن ناصر العبودي رحمه الله...

وأخرى حملتها على هاتفي لقضاء الوقت أثناء السفر وللاستزادة عن كشمير وتاريخها وغير ذلك من أمورها الثقافية والاجتماعية..

(٥٥)

دخلنا حدود كشمير الحرة، قرأت لوحة كتب عليها: مرحبا بكم في (مظفر آباد) وهي عاصمة كشمير الحرة، وإلى جانب اللوحة سارية يرفرف عليها علما كشمير وباكستان..

دخلتُ كشمير فكأنما روحا مهجورة عادت إلى مستقرها..

شعرتُ بشيء من الحب تجاه موطني ما لا يُمكن وصفه في كلمات..

دمعات شعرتُ بهن في العينين، تمتمتُ بالحمدلة، وشكرتُ الله في قرارة نفسي أنني دخلتُ جزء من كشمير لطالما أردت أن أدخله، بقي عليَّ أن أدخل النصف المحجوب عني.. كشمير المحتلة، موطن أجدادي..

كنتُ قرأت عن سوق (كوهاله) في الكتب، ووجدتني اليوم أمر عبره، كانت الصور التي رأيتها لهذا السوق تعود إلى ١٨٣٦م، فيها حوانيت صغيرة، يمر بها عربات تجرها الخيول والحمير وذلك في زمن حكم أسرة الدوغرا على كشمير..

لكن سوق (كوهاله) اليوم ليس مثل الأمس، حيث أصبح سوقا مركزيا كبيرا، فيه من الخدمات والمراكز التجارية ومحطات الوقود وكذلك ازدحام الناس..

شعرتُ أن الناس هنا حتى وإن كان فيهم فقر، على وجوههم استبشار الحرية...

فليس هناك من يستوقفك...

ولا يلقي القبض عليك بأي تهمة عابرة....

ولن يخيفك بالأسلحة النارية....

ولا يحرق محصولك الزراعي...

ولا يدمر بيتك لمجرد الشك فيك أنك مقاوم...

الفتاة هنا لن تخاف على عِرضها من جندي لا يردعهُ ضمير، ولا يردُّه قانون..

الطفل لن يتيتَّم برصاصة مجهولة...

والفتاة لن تفقد والدها الذي خرج ليجلب لعائلته طعاما..

موتُ الفجاءة في كشمير الحرة موجود بقدر الله..

ولكنهُ ليس كما هو طليقٌ محرَّرٌ في كشمير المحتلة..

تَنَفَّستُ الصعداء وأنا أتخيل الأحداث التي قرأتها وشاهدتها من خلال المقاطع في كشمير المحتلة، واسترجعت أحاديثي مع الكشميريين الذين قابلتهم في باكستان أو المدينة المنورة..

كنتُ حينها أرى قسمات وجوههم، كما أحاول قراءة أعينهم، والقاسم المشترك في كل تلك الوجوه؛ الحزن الذي لا يمكنني وصفه..

ولم تكن عندي إلا كلمات من المواساة التي كنتُ قبل أن أواسيهم أواسي نفسي، وكذلك الدعاء..

كان الله في عونهم..

كان الله في عونهم..

قلتُ ذلك وقد قبضتُ يداي من شدة القهر...

(٥٦)

وقفت الحافلة عند نقطة تفتيش (كوهاله)، ودخل شرطي وحيَّا المسافرين، وألقى نظرة على وجوههم، ثم نزل وقد سمح لسائق الحافلة بالمرور، تفعل الشرطة المحلية ذلك للقبض على أي مجرم يحاول العبور إلى كشمير، ويتم التشديد على نقاط التفتيش من وقت إلى آخر كاجراء أمني استباقي..

عبرنا من نقطة تفتيش (كوهاله)...

فسألت الذي بجانبي عن النهر الذي رأيته..

فذكر لي أنه (نهر جهلم)، يمر عبر كشمير، نهر مشترك بين الهند وباكستان، يأتي من (سِري نَغَر) من بُحيرة (دَل)، وهو رافد لنهر السند، من الأنهار المهمة التي تساعد في انتاج الكهرباء..

رأيت من ضمن ما رأيت في موضع (بَرسَالَه) مسكن مؤسس باكستان، قيل لي أن القائد الأعظم محمد علي جناح حين قَدِمَ من (راولبِندي) مرَّ من هُنا واستراحَ ذاهبا إلى (مُظفَّر آباد، عاصمة كشمير الحرة) ومن ثم منها إلى (سِريْ نَغَر، عاصمة كشمير المحتلة)، كما أقام هنا حين عودته، فبالتالي يعتبر مَعلَمًا مُهِمًّا في التاريخ الباكستاني، وقد علمت بوجود متحف صغير بجانبه..

بعد مرورنا (بَرسَالهْ) بدأ موضع (جَتَر كلاس) في الظهور، وبعد أن تعدينا مركز الشرطة، رأيت أبنية كثيرة، خِلتُ للوهلة الأولى أن تلك الأبنية نسخة من الأبنية في جدة، على مرمى البصر رأيت جدارًا رُسم عليه علم المملكة العربية السعودية، وكتب إلى جانبه: (هدية المملكة العربية السعودية)..

استرجعتُ معلوماتي عن مشاريع المملكة في باكستان..

وجزمتُ أن هذه الجامعة هي جامعة جامو وكشمير...

والحرم الجامعي هو المنسوب إلى الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود...

وقد تأكدت من الكشميريين الجالسين حولي فذكروا لي بالتفصيل..

ومما لفت نظري أنني كلما كنتُ أسأل أحدهم كان يشرح لي بإسهاب عن كل شيء، فأنا إلى جانب مهمتي التي لا يعلمها أحد استزدت من المعلومات بفضل المسافرين الجالسين حولي...

منهم من كان شابا يافعا..

ومنهم من تجاوز الستين والسبعين من عمره..

وأظن أنني علمت الكثير عن كشمير الحرة في هذه الرحلة الأولى نحو كشمير...

أجزم أنني إن عدتُ مرة أخرى..

أستطيع أن أشرح لمن حولي جميع النقاط التي مررت بها...

والمعالم التي رأيتها...

كنتُ أُدوِّن في هاتفي النقال ما علمت..

وهي عادة دأبت عليها مذ كنتُ طالبا، كنتُ مهووسا بكتابة المذكرات اليومية، وهو أمر ساعدني في التركيز والتعليم كثيرا، بل والخروج بملاحظات وتعليقات، وتحليل ما أقرؤه في كتب أو تقارير إعلامية..

(٥٧)

كان التعب قد أعياني بسبب السفر، فبعد أن دَخَلتِ الحافلة شوارع مظفر آباد، آثَرتُ الصمت، وصرت أشاهد المدينة عبر النافذة..

أصبَحَتِ الحافلة تمر بالشوارع التي لا أعلم عنها إلا ما كان يقع منها ناظري على لوحة تبرز اسم المنطقة التي نمر بها، مررت بمنطقة (نالوتشي)، و(مظفر آباد القديمة)، و(بالا بير)، شاهدت البيوت الكبيرة والصغيرة، الواسعة، والضيقة، المبنية على الأراضي المبسوطة، وعلى الجبال الرواسي..

كان صديقي (واجد خان) على تواصل معي عبر الهاتف، يسألني عن المكان الذي أمر به، حتى يتحرك هو من البيت ليستقبلني آن وصولي إلى المحطة، أرسلت له عبر الواتساب أمر تَتَبُّعِي حتى يَطمئِنَّ عليَّ..

ومن ثم أطلقتُ العنان لتفكيري في المرحلة القادمة من السفر نحو كشمير المحتلة..

هذه المرحلة أصعب مرحلة أَمُرُّ بها في حياتي، مرحلة تعني الموت الحتمي، فيما كان أمل العودة إلى الحياة نسبيا قليل جدا، وكنت آمل من صديقي بحكم إقامته في كشمير أن يدلني على الطريق، ويعلمني ما أجهلهُ، ويشير عليَّ فيما هو مناسب فعله قبل أن أغادر إلى كشمير المحتلة..

استقبلني صديقي برحابة صدر، وأكرمني أيما إكرام، وأخذني إلى بيته الواقع في حي (شاه ناله)، التقيت بأبيه الذي يُعرف بشيخ القرآن في كشمير، كذلك مع إخوانه، وكان قد أعدَّ لي طعاما كريما كما هي عادة المضيفين..

سألني الجميع بلهفة عن سفري، وكيف كان، وعن شعوري بعد المجيء إلى هنا، وعما رأيته في الطريق، كانوا إذا ما ذكرت لهم شيئا مما رأيت أضافوا لي معلومة لم أكن أعرفها..

استمتعتُ أثناء تناول الطعام معهم، ثم كان دور الشاي الكشميري، وكان دوري أن أتحدث إليهم عن المدينة المنورة بالتفصيل...

ألقوا عليَّ أسئلة كثيرة عن السعودية..

وبعض ما ينشر حولها من تضليل في الاعلام الناطق بالأردية..

أجبت على كل سؤال باسهاب..

كان يوما ممتعا بحق..

بقينا حتى وقتٍ متأخر من الليل نتجاذب أطراف الأحاديث، خرجنا نصلي في المسجد حين كان ينادينا المنادي..

كما خرجنا إلى أطراف الحي بطلب مني كي أرى كيف يعيش الكشميريون في كشمير الحرة..

ثم حين أردت أن أخلد إلى النوم...

أكدت على صديقي أنني أريدُ أن أتجه من الغد نحو هدفي..

(٥٨)

أصبحنا، وأصبح الملك لله، صلينا، طلبت من صديقي أن يكون الفطور بيضا مع الخبز الأسمر، وجبنا وزيتونا، وشايا..

أراد أن يتكلف في إعداد الفطور بيد أني منعته، كما كنتُ منعته من قبل عن إعداد الوَازْوَان وهو الطعام الذي يُعَدُّه الكشميريون للضيوف، من اللحم نفسه يصنعون صنوفا عديدة، العمل عليه شاق، وأردت ألا أكلفهم في شيء حتى لا أتأخر عن هدفي..

انطلقتُ عقب تناول الفطور نحو (وادي نيلم)، مارًّا بعدد من المناطق مثل (كامْسَر)، و(كَهُوري)، و(بتهيكا)..

أخبرني صديقي ونحن نعبر منطقة (تشيلا باندي) قريب من (كامسر) أن هذه هي المنطقة التي دُمِّرت في لمح البصر حين أصابها الزلزال في ٨ أكتوبر ٢٠٠٥م، وهي أمام (تشيلا باندي) و(باندي مير صمداني)، يقال لها: (نيلي دندي)..

أصبحت قاعًا صَفصَفًا...

بعد أن كانت خضراء عامرة بالأبنية...

تحوَّلت من جنة تَسُرُّ الناظرين إلى مثال لمنظر القيامة الكبرى التي يصفها القرآن في سورة الزلزلة حين يقول: (إذَا زُلزِلَتِ الأرضُ زِلزَالَها، وأَخرَجتِ الأرضُ أثقالها)...

وفي سورة القارعة: (وتكونُ الجِبال كالعِهْنِ المَنفُوش)...

رأيتُ تحول المنطقة إلى ميدان...

وكأن الجبال التي وُصفت لي...

أصبحت حجارة صغيرة مسحوقة بفعل فاعل..

مررنا بالكثير من المناطق، أكثرها كانت خضراء سارة للنظر...

وقفنا وتناولنا السمك، أكثر سفري كنتُ صامتا فيه، أفكر في المرحلة القادمة، فيما كان صديقي يشرح لي كل ما يتعلق بكل منطقة..

كما أراني أثناء عبورنا البيوت التي أصابتها رصاصات الجنود الهنود والقنابل المصوبة نحو سكان كشمير الحرة، وهذا فعل تقوم به الهند بين الفينة والأخرى تخرق فيها اتفاقية وقف إطلاق النار الموقعة بين البلدين..

عدد من البيوت المدمرة أعيدت إلى حالتها الأصلية..

فيما بدت بعض البيوت مهجورة متروكة بسبب هجرة أهلها نحو مناطق كشميرية أخرى خوفا من الهجمات المتكررة...

وصلنا إلى (كيرَنْ)..

حيثُ كنتُ أريد أن أصل...

بدا لي أنها منطقة تختلف كلية عما رأيته من قبل في كشمير الحرة..

أمامي جزء من نهر نيلم يجري..

وخلف النهر كشمير المحتلة..

وهناك أطفال ورجال كشميريون يقفون على حافة النهر، قريبون مني جدا، فلو أردت أن أرسل إليهم شيئا من خلال رَميَةِ يَدٍ لاستطعتُ..

ولكن تكبلني القيود الجغرافية للمرور إلى الطرف الآخر..

شعرتُ بأن قلبي توقَّف للحظة الواحدة..

هذه اللحظة التي أردتُ أن أعيشها بكل ما أوتيتُ من حياة، وقوة، وإحساس، وشعور... كنتُ في كشمير الحرة..

وأمامي مباشرة... كشمير المحتلة..

موطن الآباء، حيث الأراضي المملوكة لأجدادي...

الفلاحون الذين كانوا يوما ما سادةُ القوم...

ثم شتتهم تواطؤ الانجليز مع الهندوس..

حيثُ قُسَّمت أراضيهم، وهُدِّمت بيوتهم، وحرقت أراضيهم المزروعة، وقتلوا، فيما أبيدت أسر كثيرة عن بكرة أبيها...

استرجعتُ ما حكتهُ لي جدتي لأمي، وكيف أنها رأت ما حصل أثناء استقلال باكستان، شعرتُ بحرارة دماء المسلمين المسفوحة على رقبتي، والألم الذي يعتصرني مذ أدركتُ ما يحصل في كشمير المحتلة، ذبذبات الألم شعرتُ بها تنتقل من (كيرن) الواقعة في كشمير المحتلة، إلى (كيرن) في كشمير الحرة، إلى جسدي..

لوَّحتُ للأطفال بيدي، فيما خاطبتُ الرجال هناك أسأل عن حالهم، أظهرتُ لهم بإشارة اليد ودي، وقُمتُ بإخراج بعض الحلوى التي جلبتها من المملكة معي، ووضعتها في كيس بلاستيكي، ورميتها بكامل قوتي نحو الطرف الآخر للأطفال، منعني صديقي من ذلك خوفا من رد فعل الجنود الهندوس، ولكن كانت مشاعري وأظهرتها..

(٥٩)

ودَّعتُ صديقي شاكرًا إيَّاهُ على تَحمُّلهِ كل هذا العناء من أجلي..

عاد هو إلى (مُظَفَّر آباد)...

فيما بقيتُ هنا في (كيرن) أعدُّ العدة للدخول إلى الطرف الآخر من كشمير..

لم أكن أعرفُ أَحدًا هُنا...

ولم أكن قادرًا على مشاركة تهوُّري مع أحد خوفا من أن يفتن بي، لأجد نفسي في زنزانة باكستانية...

كنتُ أخرج حين يحل الظلام..

أتجوَّل حول جزء من الخط الفاصل بحثا عن منفذ للطرف الآخر..

ولكني لم أنجح...

في إحدى الأيَّام استوقفني جندي يجول في المنطقة، واستجوبني، وذكر لي أنه يشاهدني منذ أيام، وأكد لي أنه يشك فيَّ، أظهرتُ له أوراقي الثبوتية، وقلتُ له: مجرد سائح، وأعجبني هذا المكان، وسأقيم فيه لأيام...

حدق طويلا في عيني..

أعاد هويَّتي إليَّ، وأمرني بالانصراف والابتعاد عن الخط الفاصل، والأماكن القريبة جدا من الطرف الآخر، ونبَّهني أنني إذا حاولتُ تجاوز النهر أو حتى الذهاب إلى منتصفه، سأجد رصاصة هندية من الطرف الآخر تخترق جسدي... كان حازما معي جدا، ولطيفا بعض الشيء، وكأنهُ ينبهني، وفي ذات الوقت ينصحني..

(٦٠)

بتُّ أشعر بالقلقِ من عدم وجود أي منفذ حتى الآن..

كثير من المرات فكرت في أن أصارح الجنود الباكستانيين الجوالين على الخط الفاصل بما يكنُّه الضمير...

ولكنها كانت فكرة سيئة جدا لا تُسمن ولا تُغني من جوع، بل تضرُّ..

قررتُ أن أجرب رمي أي شيء تجاه الطرف الآخر حتى أرى ردود الفعل..

أخذتُ قطعا من القماش صغيرة..

ووضعت داخلها عدد من الحجارة كي أرميها إلى الطرف الآخر..

جربت من أربعة أماكن مختلفة...

في المرة الأولى سمعت دوي رصاص في ذات المكان الذي سقطت فيه الحجارة، وفي مكان آخر رأيت بعد دقائق جنديين هنديين يعسان المنطقة...

أما في المكان الثالث فرأيت إضاءة قوية قادمة من على بعد وكأنها تبحث عن مفقود، المكان الرابع لم أجد فيه أي تجاوب..

في اليوم التالي تركت الذهاب إلى الأماكن المختلفة التي كنتُ أرتادها، وركزت على المكان الذي لم أجد فيه ردا، وكررت ذلك، فكان الصمتُ المطبق هو الجواب...

بريق من الأمل لاح لي للعبور إلى الطرف الآخر من هذه المنطقة، تأكدت أكثر، فعزمتُ أن أقطع المنطقة في هَزِيعٍ من الليل، عدتُ واستلقيتُ مطمئن البال...

(٦١)

كنتُ اتفقت مع (صبيحة) أنني سأتواصل معها بعد أن أدخل (كيرن)، وطلبت منها ألا تتواصل معي إلا إذا كانت هناك حالة طارئة تستدعي التواصل..

بعد أن كنتُ بعيدًا عنها بُعد المشرقين..

أنا الآن أقف منها على بُعدِ فَرسَخٍ...

بيد أن خطا فاصلا وهميا رسمهُ الظلم الهندوسي والبريطاني على الكشميريين، وعززته الكراهية والبغضاء بين أمتين يحول دون الوصول إليها، إلا بشق الأنفس، بثمن ليس أقل من الحياة...

راجعتُ جميع الخطط التي كنتُ رسمتها حتى لا أقع في أي خطأ يكلفني الحياة..

كان عليَّ أن أتواصل مع (إكرام) وأخبره بالمستجدات...

والذي بدوره يؤكد على (شبير) مجيئي إلى (كيرن)...

استخرجت اللبس الكشميري (الفيرن) كي ألبسه غدا، حتى إذا ما دخلتُ الطرف المحتل يصعب على الجنود معرفتهم بأنني قادم من الجزء الحر.

كان هذا اللبس نافعا في الخداع البصري لأي عملية تفتيش يسيرة محتملة..

أعددت فراشي..

هيأت المخدات.. قرأتُ المُعوِّذات، اتَّجهتُ بوجهي نحو القبلة، وضعتُ يدي على خدي الأيمن، وقرأت سورة الملك، ونمتُ..

(٦٢)

استيقظتُ آنَ صلاة الفجر..

يومٌ هادئ مثل باقي الأيام التي قضيتها...

زقزقة العصافير...

وأصوات طيور أخرى لم أستطع تمييزها...

صوت الماء الجاري...

الخضرة من حولي...

بينما في داخلي طوفان يغلي من الأشواق.. وذبذبات من الخوف والرجاء...

بعد تناول الفطور ذهبت لاستكشاف أماكن مختلفة حولي، وعدتُ كي أنام وأستيقظ في الليل وأنا واعٍ وعلى أتم استعدادٍ للمرور إلى الطرف الآخر..

كان عليَّ أن أمرَّ النهر الفاصل بين الجانبين، ومن ثم المشي على ارتفاع، فالبيوت هنا بعضها كانت على سفح الجبل الواقع في (كيرن المحتلة) وبعضها على سفح الجانب الآخر من الجبل، وبعضها على مرتفع..

أخرجتُ الخريطة على هاتفي والتي بيَّنت أن بيني وبين الوصول إلى المكان المحدد ما يقارب ست كيلو مترات مشيا على الأقدام، كانت مسافة اعتيادية بالنسبة لي كوني اعتدت المشي يوميا لمسافة أكثر من ذلك، بيد أن الخطورة تكمن في الوصول إلى ذلك المكان سالما معافى، ومن ثم العمل على إخراج أم صبيحة، وشقيقها إن وجدتهما ضمن الأحياء، مهمة مستحيلة قائمة على أمل بالله..

(٦٣)

في الساعة الثانية دق أحدهم باب غرفتي بهدوء شديد..

خفت من هذا الطارق..

ورأيت عن طريق فتحة الباب رجل متلثم...

زاد خوفي، فتحتُ الباب، نظراتي الموجهة إليه كانت كلها استفسارا... كان هادئا أكثر مما ينبغي، قال لي هيا فلنذهب... كدت أفقد وعيي من شدة الخوف، تماسكت، وقلت له:

- من أنت؟
- ألا تريد أن تنتقل إلى الجانب الآخر من النهر؟
- لا..
- لا تكذب، أنت الآن على وشك الخروج، هيا أساعدك..
- من أنت؟
- لا تخف، سأساعدك...
- لعلك أخطأت الغرفة..

أردتُ بعدها إقفال الباب، لكنه أمسك بالمقبض، وبدأ يسرد لي ما شاهده على مدار الأيام الماضية، خروجي من السكن، وذرع المنطقة ذهابا وإيابا، ورمي القطع القماشية المليئة بالحصى، وعودتي إلى السكن، ثم طلب مني أن أخبره بالسبب كي يستطيع مساعدتي، أدخلته الغرفة واعترفت له بكل شيء..

ظننتُ أنه رجل من المخابرات الباكستانية، ومسؤول عن المنطقة التي أقطن فيها، سألته لكنه أنكر ذلك...

واكتفى بالقول أنَّه من سكان هذه المنطقة، ويعرف كل شبر فيها..

لم أصدقه...

ولكني سألته لماذا تريد أن تساعدني؟

على العكس من ذلك قد تساعد في القبض عليَّ!!

لكنه حلف بالله أنه لن يفعل، وسيساعدني في المرور نحو الطرف الآخر..

طلبتُ منه أن يُقنعني، قامَ نحو الدولاب الموجود في الغرفة، أخرج القرآن، ووضع يده عليه، وحلفَ..

كان عليَّ أن أُصدِّقه..

ولكن بقي يدور في خاطري لماذا يريد أن يساعدني؟

كررت عليه السؤال، فقال لي بأنه من سكان هذا الجانب، ولكن بعض عائلته موجودين في الطرف الآخر، بين كثير من القاطنين على هذا الجانب، والجانب الآخر رَحِمٌ، هذه المنطقة في الأصل منطقة واحدة، (كيرن) هو الاسم المشترك على الجانبين، ربما لا نستطيع الذهاب هناك بحرية لكننا نجتمع على طرفي النهر أحيانا، ولستَ أول قادم يريدُ العبور..

قلتُ له: أتُدرك أن هذا الأمر قد يضرُّ بك؟! أماط اللثام عن وجهه، وقال: اسمي (توصيف)، وأنا ضراء هذه المنطقة وسرائها.. اكتفيتُ بالابتسامة على ثقته المفرطة، وقلتُ: سأتأخر إن لم أذهب الآن.

(٦٤)

بِتُّ شاكا في أمره...

فمن ذا يكون حتى يقدم لي هذه المساعدة على طبق من ذهب دون أن يعرفني، شعور من الوجل سرى في جسدي..

ثم إنه لم يبق لي خيار آخر..

فمضيتُ خلفهُ واضعا كل أملي في الله..

ومن ثم في هذا الرجل الأجنبي الطارق..

بات (توصيف) يصف لي الطريق وأنا أمشي خلفه، بعد نصف ساعة تقريبا أشار إليَّ بالتقدم يمينا، فيما وقف هو على الشمال، انبطحنا أرضا، وقطعنا أمتارا زحفا على السواعد...

وصلنا إلى منعطف مخبأ بين الأشجار لا يكاد يرى إلا بأعين فاحصة، كما أن النهر الجاري خلته أن المرور منه سيكون سهلا جدا، بعد أن وصلنا إلى نقطة الفراق، أشار بيده اليمنى إلى المرور والذهاب إلى الجهة المقابلة... شككت فيه للمرة الأخيرة قبل أن أعطيه ظهري، وأُيمِّمُ وجهي نحو كشمير المحتلة...

مشيتُ خطوتين ثم استدرتُ إليه..

وعانقتهُ شاكرا إياه على غنيمته الباردة، فيما همس إليَّ أن المكان الذي تقصده قريبٌ من هنا، على بعد ساعة تقريبا، عليك أن تمشي الهوينى، وأخرج من الكيس ملابس القناصة للصيد وأخبرني أنه يجب عليَّ لبسها للتمويه حتى الوصول إلى منطقة مفتوحة، وكذلك فعلتُ..

(٦٥)

تسارعت دقَّات قلبي وأنا أطأ بقدمي أرض كشمير المحتلة، أرض أجدادي، وطني الذي لم أراه يوما، ووطنُ حبيبتي والذي حفَّزني وجودها فيه للذهاب إليه.. فكَّرتُ في القدر الذي رماني فيما أنا فيه، وشعوري حينها كان مثل شعور رجل يدخل بيته متنكرا..

قبل الذهاب كنتُ قد تواصلتُ مع (شبير) الذي كان ينتظرني بفارغ الصبر، أكد عليه صديقي (إكرام) بالاهتمام بي وبأموري أيما اهتمام..

اضطررتُ بضع مرات للزحف على الأرض بسبب تشابك الأشجار فيما بينها، ووجودها على مستوى قريبٍ من الأرض، حتى وصلت إلى منطقة مفتوحة..

قمتُ بنزع ملابس القنص، وخبأتها بين الأشجار حتى إذا ما عُدت من هذا الطريق ألبسها مرة أخرى، الملابس الكشميرية كانت موجودة على جسدي، وقد بات مظهري لا يمكن التفريق فيه عما إذا كنتُ من كشمير الحرة أو المحتلة..

مضيت أتتبع الخارطة دخلت بين الحواري، إلى أن شعرتُ أن هناك من يراقبني، لم أمضِ إلا بضع خطوات إلا وشعرتُ بركلة من الخلف، سقطت معها أرضا على ركبتاي..

هذا آخر ما أردت أن أواجهه في كشمير المحتلة، لكني كنت متهيأ لمثل هذا الموقف، فبالتالي أظهرتُ رباطة جأش، جنديين هندوسيين دخيلين في كشمير المحتلة كانا على رأس كشميري يعتبر عند الهنادكة دخيلا، بل جاسوسا لو اكتشفوا عنه..

سقطت على ركبتاي، تألمت، وسمعتُ أحدهم يأمرني بالانبطاح أرضا، فيما الآخر قام بتكبيل اليدين، ووجَّه وجهي نحو الأرض، بدآ يسألان من أنت؟ وماذا تفعل هنا؟ وعندما وجدا مني صمتا مطبقا قاما بركلي مجددا ورفعي...

قبل أن يبدآ في تفتيشي حملقا في وجهي، ووجدا أنني أعور العين، فلما استنطقاني أظهرتُ لهما بصوتٍ مشوش أنني أبكم، أطلقت أصواتا غير مفهومة كأن غرابا ينعب في فمي، متظاهرا بأنني لا أستطيع الحديث، سمعتُ أحدهما يقول للآخر، اترك ابن الكلب هذا.. أضاع وقتنا...

فيما قال الجندي الآخر للأول أن يفتش جيوبي علهما يجدان شيئا، بيد أنه قال: اترك الأعور يذهب، وجهه المنحوس لا يدل على أن في جيبه مثقال ذرة من مال...

طالعتُ في وجهيهما ببلاهة، ورفعتُ يداي متظاهرا بطلب العفو، فليس المكان مكان الانفعال والرد، أمسك أحدهم بمقبض البندقية وأراد تخويفي، وأمرني بكل احتقار أن أغرب عن وجهه، ولما استَدَرتُ مُوَلِّيًا ظهري لهما... ضربني أحدهم ببندقيته...

كدتُ أسقط من الضربة مجددا، ولكنني تماسكت.. ومضيتُ مصطنعا حالة هستيرية من البكاء.. متمتما بكلام غير مفهوم لهما، لاعنا إياهما في ضميري..

كان النحس بادٍ على وجهيهما، استشعرت من تقاسيم وجهيهما أنهما مطرودان من رحمة الله، بيد أنهما يعيشان في هذه الجنة التي أدخلتُ نفسي فيها عنوة، وأنا الحقيق بها أصلا، فيما الدخيل يعيش فيها دون وجل.. كم تَمَنَّيْتُ في نفسي أن يكون خازن النار هنا، ليرمي هذين المسخين في قعرِ جهنم..

كان عليَّ الابتعاد سريعا من هناك رغم الآلام التي بدأت في جسدي بسبب العنف، ورغم شعور الانتقام الذي ولد في داخلي جراء هذا الاذلال، على بعدِ مسافة ليست بالطويلة وجدت جنودا آخرين بين النوم واليقظة، في أيديهما سلاح ناري... اقتربتُ منهما لأنه كان عليَّ عبور نقطة التفتيش تلك، أحدهما صوَّب بيد واحدة نحوي -لاحتقاري وإخافتي- مسدس خرطوش لو أطلقه لملأ جسدي بالكُريَّات المقذوفة، وأعماني، وأرداني أرضا، لم أُعره اهتماما ومضيتُ إلى الأمام، ولم يوقفني منهم أحد..

وصلتُ إلى بيت (شبير) والذي أزعجه ما رآه من الحالة التي أنا فيها، لكنه لم يتفاجأ، بل شكر الله أنني وصلتُ إليه بسلام قرب وقت صلاة الفجر، بعض الجروح اليسيرة التي رآها عليَّ أراد أن يداويها، فقلت له ضع الديتول والمرهم في دورة المياه، وأعطني بعض الملابس، واصنع لي بيضتين وشايا كشميريا، وابتسمتُ له، وعانقتهُ شاكرا إياه على مساعدته.. جلستُ في الغرفة التي كان قد هيأها لي بكل اهتمام.. الأثاث الخشبي، سرير النوم، المفارش.. كلها كانت جميلة على بساطتها.. شرعتُ في فك الخِرَقِ التي ربطتها على رجلي، كنتُ خبأت فيها مبالغ مالية إلى جانب بعض السبائك الذهبية الصغيرة..

قلتُ لشبير هذه هي السبائك، وهي في يديك، استخدمها كما تشاء للغرض الذي تراه مناسبا في سبيل الحصول على والدة صبيحة، وأخاها المفقودين..

نظر إليَّ وقال: بلهجة ناصحة: ارتح قليلا، ثم استحم، وغيِّر ملابسك وتجهز، وسنتحدث على مائدة الفطور.. فعلتُ كما أمرني، جلب لي ملابس كشميرية جديدة، ووضع عطرا بجانبها، وقال لي: هذه هدية مني لك، شكرته على كرمه وضيافته، وقلت له: لن أنسى معروفك هذا يا (شبِّير).. ابتسم الكشميري الودود من قلبه..

(٦٦)

جلسنا على مائدة الفطور..

استرجعتُ معه بعض المعلومات التي كان (إكرام) قد ذكرها لي عنه...

حسبَلَ وحوقل، ولم يَزِد كثيرا على ذلك، وشكر الله على ما فيه..

ثم بدأ يسرد الأخبار المحلية بالتفصيل...

وأكد عليَّ بعدم الخروج من البيت إلا بمعرفة وإذن منهُ، وافقت..

وحين بدأت في السؤال عن والدة صبيحة وشقيقها سرد لي التفصيل، وأكد أنهما ليسا على قيد الحياة، وأنهما مدفونان في مقابر مجهولة..

والمقابر المجهولة كما نعرفها واكتُشفت تقع في كل من (باندي بوره)، (وبارامولة)، و(كُبواره) من شمال كشمير المحتلة...

حاولتُ أن أصل إلى مكان دفنهما بشكل دقيق ولكني فشلت..

فالمقابر المجهولة لا أحد يعرف من المدفون فيها...

وكم شخص مدفون في قبر واحد..

وسبب مقتلهم...

هي حالات عمياء، لا تحقيق، ولا محاكمة، ولا إنصاف، ربما قوائم سرية للمدفونين قد تكون موجودة لدى المخابرات المحلية، ولكن على وجه العموم لا يمكن معرفة ذلك نهائيا، استنفذت جميع المحاولات... سمعتُ ما قاله بكل أسى، ودخلتُ في نوبة صمتٍ... تركني شبير وحيدا، ومضى...

(٦٧)

فكرتُ في كيفية مواجهة (صبيحة) بهذه الحقائق، على الرغم من إدراكي أنها تعيش في حالة من اليأس، وهي شبه متأكدة من عدم بقائهما على قيدِ الحياة...

ولكن حاولتُ قدر الإمكان أن أقف معها..

وما سمعتهُ محبطٌ جدًّا...

وأظنه اعتيادي في كشمير...

فهنا حياة الكشميريين مرهونة بعدمِ انتفاضتهم، ومن ينتفض ضد المحتل الهندوسي فهؤلاء الجبناء ليست لديهم إلا الرصاصات الحية...

قررتُ أن أنام..

وحين أستيقظ سأرى كيف ألتقي بصبيحة..

ونخطط للخروج من هنا..

هل ينبغي أن نعودَ معًا من نفس المكان الذي جئتُ منه، أم أنَّ (شبيرا) يستطيع أن يؤمِّن لها مخرَجًا آخر..

خططتُ ووضعتُ الكثير من الاحتمالات، ولا أدري متى داهمني النوم، ولم أستيقظ إلا على قرعِ (شبير) للباب بشدة، خفتُ من ذلك، وفتحتُ الباب، واعتذرتُ منهُ، لكنه أردف بأنه قلق من عدم فتح الباب، كان الوقت ما يقارب الخامسة مساءً، معنى ذلك أنني نمتُ طويلا، ذكر لي بأنه عليَّ أن أصلي الظهر قضاءً والعصر، وقال بأننا سنجلس بعدها فوق سطح البيت، وسيتناول هو الشاي، فيما سيعد وجبة غداء لي، فقلتُ له: دعك من ذلك سأشرب الشاي معك، ومن ثم سنتعشَّى معا..

(٦٨)

صعدت بعد أداء الفروض إلى السطح..

وجدته ينتظرني..

تنفَّستُ الصعداء..

هذي أول مرة في حياتي أرى كشمير المحتلة من داخلها بشكل جلي..

يا الله!!...

كم كان المنظر رائعا، بيوتا خشبية من الطراز القديم على مد البصر، وكأنما الأشجار تحتضنها..

أصوات الطيور التي تحلق في الجو عائدة إلى أوكارها..

تجاذبنا أطراف الحديث، وأكدتُ له أنني أريد اللقاء بصبيحة حتى أخبرها بكل شيء، وأرتب معها الخروج من هنا إلى باكستان، سألته مستشيرا هل أعودُ معها من حيثُ أتيتَ أم لديك خطة أخرى؟

سألني عن المشاكل التي واجهتني أثناء القدوم إلى هنا، وكنتُ قد أخبرته بكل شيء من قبل، فذكر لي قد يكون الطريق الذي جئت منه مناسبا، ولكن يستلزم أن أرتب لك وقت الخروج المناسب..

ثم طلبتُ منه أنني أريد أن أزور السوق المركزي في هذه المنطقة...

سكت لبرهة يفكر في طلبي، ثم ابتسم في خُبثٍ، وقال: سأفعل، ولكن عليك ألا تتحدث بل كُن كما كنتَ أبكما، سنذهب بعد المغرب إن شاء الله..

(٦٩)

راسلتُ صبيحة عبر (الواتساب)..

وأخبرتها أنني في (كيرن)..

بالقرب منك..

ولكني لا أعرف أينَ أنتِ...

ولكني قدمتُ من أجلك...

أرسلي لي مقر إقامتك، دعيني أرى المسافة بيني وبينك..

كانت شبكة النت لديها غير مفعلة، لذلك لم ترد علي في نفس الوقت، ولعلها كانت قد خصَّصَتْ هاتفًا للتَّواصل معي، وقد أَقفَلَتْهُ وخَبَّأَتهُ في مكان ما في البيت، ولا تفتحه إلا نادرًا..

على وجه العموم.. انصرف (شبير) عني بعد أن صلينا المغرب معا، وعاد بعد عشرِ دقائق، وقال لي بأن أترك الهاتف في البيت، ولنخرج لنزور السوق..

خرجنا من البيت معا مشيا على الأقدام...

كان (شبير) عندما يمر في كل نقطة تفتيش يخبر الجندي عني أنني قريبه، أتى من الوادي ليبقى معي أياما، وهو أبكم لا يتكلم.. فيما كنت قد رسمتُ على وجهي بسمة بلهاء أرميها لكل من نقف عندهم.. كانوا يشيرون بالذهاب إلى حيث وجهتنا، والحقيقة أنني شعرتُ بخوف لم أشعره في حياتي قط، لقد كانت جرأة عجيبة من (شبير) في إخراجي هكذا، إلى جانب الخوف كنتُ أعيش فرحة الوجود في وطني المغتصب، ونشوة الانتصار على المحتل الهندوسي..

(٧٠)

عدنا بعد جولة رائعة، كان (شبير) بمثابة كلمة السر، أو مفتاح المرور، ولأنه كان يقطن هذه المنطقة ويعرفه الضباط والجنود فقد كان الشك فيه بعيدا، إذْ كان يُكرمهم ويشاركهم في بعضِ ما لديه من طعام أو فواكه، لذا تجرأ وأخذني مشيا على الأقدام، قلتُ له أنك تحسن إليَّ إحسانا عقِبَ إحسانٍ.. وكان يبتسم..

عدتُ لأرى هاتفي إن كانت أرسلت (صبيحة) شيئا، بيد أن أملي خاب، انقلب بصري عن الهاتف حسيرا..

اتفقت مع (شبير) أن نتعشى التاسعة والنصف..

ومن ثم نحتسي الشاي العاشرة فوق السطح..

وسنمشي قليلا ونعود بعدها إلى غُرفنا.. كنا جلبنا بعض ما نود أن نأكله، فشرع (شبير) في تجهيزه، بينما عدتُ إلى غُرفتي لأستحم وأصلي العشاء..

أقلقني عدم رد (صبيحة)..

لم يكن لدي خيار سوى الانتظار..

أزحتُ عن هاتفي خيار الصمت...

ورفعتُ صوت الجوال إلى أقصى درجة حتى يمكنني الانتباه لأي رسالة تردني منها....

تعشينا، واحتسينا الشاي، وذرعنا السطح، وعدنا إلى غرفنا، ولم أجد أي اتصال من (صبيحة)، سئمتُ الانتظار، فأقفلت هاتفي، ونمتُ...

(٧١)

استيقظتُ آن صلاة الفجر..

وأول ما امتدت يدي إليه، الجوال؛ فتحتُ الشبكة، ووجدتُ رسالتين منها..

هَلَّلت فرحا بوجودي في كشمير..

وأظهرت استبشارها، وأَوضَحت أنها لا تفتح هذا الجوال إلا في وقت متأخر من الليل..

وفي الرسالة الثانية ذكرت أنها ستتواصل معي صباحا، وستلتقي بي..

فكتبتُ إليها أن تنتظر حتى أخبرها بالوقت والمكان المناسب، فعلتُ ذلك كي أستشير مع (شبير) عما إذا كان اللقاء مناسبا هنا في البيت، أو خارجه...

انتظرتُ حتى انتهينا من الصلاة..

وأخبرت (شبير) بما استجد، فرأى الخارطة المرسلة من (صبيحة)، وأوضح لي أنها قريبة من هنا، لا تبعد إلا بضعة دقائق مشيا على الأقدام...

وأخبرني أن من الأفضل أن تأتي وتلتقي بك هنا في البيت قبيل المغرب، فأخبرتها بذلك... واسترجعتُ اللحظات التي أمضيناها معا في الرياض، والمدينة، ومكة، وفي جدة..

...وأخيرا سألتقي بها في كشمير..

حيثُ كنتُ وعدتها أنني سآتي لأُخرجها من ظلام الاحتلال، إلى نور الحرية.. وكنتُ على وشك الوفاء بوعدي، يفصل بيني وبين لقائها سويعات كما أَملتُ..

(٧٢)

قلتُ لـ(شبِّير) أن يجلب لي كل ما يمكن جلبه للضيف في كشمير، الشاي، البسكويت، الحلى، وما هو أدرى به، وقلتُ له بأن يضع طاولة على سطح البيت وكرسيَّينِ، وقد فعل..

أتَتْ (صبيحة) وفق الموعد المحدد لها..

استقبلتها داخل البيت، وأردتُ أن أعانقها في لحظة فرحٍ غاب فيها استيعابي، ولكني أدركتُ في اللحظة الأخيرة.. عوضا عن الإنجليزية كما كنا نتحدث في السعودية أردتُ أن أسمع الأردية في لهجتها الكشميرية المتناغمة، لذا اخترتُ أن أتحدث بالأردية..

جلسنا على السطح، وكان الله ثالثنا، وكشمير، والحب.. استرجعنا بعض ما مررنا به في المملكة، وأخبرتني ما استجدَّ معها بعد عودتها إلى كشمير، كما تطرَّقنا إلى أخيها الهندوسي غير الشقيق (راج) والذي كاد أن يشي بنا أمام أبيه، وخداعنا له كما كان يريد أن يخدعنا، ضحكنا معا، لكنها دمعت حين قلتُ لها أن والدتك وشقيقك لم يعودا على قيدِ الحياة، وأوضحت لها أن (شبير) هو من قام بالبحث والتحرِّي في هذا الأمر، وتأكد تماما، ثم أخبرني، واسيتها... رحمةُ الله على والدك المغدور، وعلى والدتك وعلى شقيقك اللذين ماتا مظلومين، كبقية الكشميريين المغدور بهم..

بدأنا الحديث عن خطة خُروجنا من كشمير المحتلة، إلى كشمير الحرة، ومن ثم إلى باكستان، فاجأتني أنها لا تستطيع الذهاب معي، نظرتُ إليها في استغراب شديد، وقد عالجتني الظنون إلى أن بدأت تنطقُ من جديد..

ذَكَرَتْ أنَّ الحكومة الهندية بعد عودة (أشوك) من (الرياض) من عمله الدبلوماسي، عيَّنتهُ في (أفغانستان)، وسنذهبُ إليها خلال الأيَّام القادمة...

أفغانستان...

ممم، لم أستغرب من ذلك، كون الهند كان لها نشاط غير دبلوماسي في أفغانستان ضد باكستان..

وكانت تعين دبلوماسييها بكثرة، خصوصا على طول الحدود الأفغانية الباكستانية..

قالت (صبيحة) أن من الأفضل لها أن تذهب دون إثارة أي أمر هنا إلى أفغانستان..

ومن هناك يمكننا التخطيط للذهاب إلى باكستان..

خصوصا وأن نقاط العبور الأفغانية مع باكستان على كل حال أسهل في العبور من النقاط المجهولة في كشمير المحتلة...

وافقتها الرأي..

وقلت لها: لا بأس...

ولكن كان الأولى أن تخبريني بذلك حتى لا أتعنَّت كل هذا العنت..

فأخبرتني أن أمر تعيين (أشوك) استلمهُ أمس بشكل رسمي..

ساعة واحدة أمضيناها معا...

دانت لي فيها سعادة الدنيا..

حتى استأذنت (صبيحة) للعودة، كان الغروب قد حان..

فقلتُ لها:

وقتُ غروب الشمس، إلى جانبِ غروبكِ، إلى جانب غروبي عن كشمير المحتلة دون أن أظفر بك، فمتى يحين شروقنا يا صبيحة؟ ابتسمت على استحياء...

نزلنا من سطح البيت إلى فنائه، ولم نجد (شبيرا)...

فودَّعتها بقلبٍ فيهِ ما فيه من لوعة الاشتياق، ومرارة الحزن...

وعدتُ إلى غرفتي وأنا على يقينٍ أنَّ رحلةً أخرى من العناء تنتظرني نحو (أفغانستان)..

عاد (شبير) بعد ما يقارب النصف ساعة...

وذكر لي أنه ذهب ليشتري بعض الأشياء من السوق..

فأخبرته بجميع ما حصل بيني وبين (صبيحة) من حديث، وقلتُ له بأنني أريدُ العودة اليوم إلى الجانب الآخر من كشمير..

أراد مني أن أكون في ضيافته أكثر...

بيد أني امتنعتُ، وشكرته على كرمه وإحسانه إليَّ، وإلى تكبُّد كل ما كان بسببي، وأهديتهُ سبيكة ذهبية لم يكن ليقبلها لولا أنني حلفتُ عليه أن يقبل، وقلتُ له بأن يُهَيِّئَ لي أمر المَسِيْر متى ما رأى ذلك مناسبا..

فذكر أنه سيعسَّ هذه الليلة، ويرى عما إذا كان الخروج مناسبا أم لا، كما قمتُ بإحاطة (إكرام) علما بما حصل، وأبديت له امتناني وسعادتي به، وبشبير ونقلت له حسن صنيعه معي..

(٧٣)

أصعب أمر كان هو الدخول إلى كشمير المحتلة، وعليه أشق ما في هذه المهمة هو الخروج أيضا..

انتظرتُ شبير الذي كان قد ذهب ليخبرني عما إذا كان خروجي مناسبا أم لا، وقد عاد بعد ساعات...

وأخبرني أن هناك مسح أمني معهودٌ...

وقد بدؤوا بذلك منذ ساعات من المكان الذي جئت منهُ، وأظنُّ أنهم سيمسحون هذه المنطقة عن بكرةِ أبيها، فبالتالي من الأنسب أن تعودَ اليوم في آخر الليل؛ لأنهم على الأغلب سينتهون من مسح هذه المنطقة أيضا حتى تلك الساعة، وقد أمنوا الجانب، وعلينا أن نستغل هذا الوقت..

وأخبرني أنه سيذهب معي إلى آخر نقطة..

ورغم منعي له إلا أنه أصرَّ على ذلك حتى يطمئن عليَّ...

فقلتُ له: سأكون جاهزا، ومتى ما تشير علي، سنخرج..

قمتُ بلبس نفس اللباس الكشميري الذي لبسته وأنا قادم، وانتظرتُ حتى أشار (شبير) عليَّ بالخروج، أمسك (شبير) ببعض الأكياس التي ملأها بالملابس حتى يوهم أي جندي يقابله بأننا ذاهبون إلى بيتٍ آخر، كان الظلام حالكا، إلى جانب ضباب كثيف كان يمنع الرؤية، بالكادِ كنتُ أتتبعُ خُطى (شبير)، فجأة شعرتُ بقبضة يدٍ تجرُّ ثيابي من الخلف، فكرتُ وأنا أسقط على ظهري، من المؤكد أنَّهُ جنديٌّ هندي، فناديتُ شبير..

انتبه (شبير) لصوتي وعاد إلى الخلف، فيما وقفتُ أنا من سقطتي، فوجدت أن الجندي يتساءل بنظراته الموجهة إلى كلينا عمن نكون؟ وإلى أين نتجه؟

وفي ذات الوقت...

لاحظنا أنه يتمايل..

وهذا يعني أنه ثملٌ..

تحدث إليه (شبير) باللغة الكشميرية بأننا ذاهبون إلى البيت الواقع في الشارع المقابل، وما إن أكمل جملته حتى سقط الجندي الثمل أرضًا..

جرَّني (شبير) من يدي، وقال لي أن ننطلق من هنا بسرعة قبل أن يلاحظ أي جندي آخر وجودنا..

التقطتُ أنفاسي...

كرهتُ هذا الجندي وغيره ممن حرم أهل كشمير وطنهم، ويقفون على رؤوسهم، يريدون سلب أنفاسهم حتى...

بل حياتهم مرهونة بسكوتهم...

وقيمتهم في نظرهم هي قيمة رصاصة البندقية التي قد تنطلق في أيِّ لحظةِ غضب، فلا ضمير يوقفه، ولا قانون يردعه..

بل ثمة قانون يحميه..

وهو قانون (AFSPA) قانون الصلاحيات الخاصة للقوات الهندية المسلحة والذي يسمح باستخدام صلاحيات واسعة، مثل القبض دون أمر قضائي، وإطلاق الرصاص الحي، وتدمير أي عقار مشبوه..

وكل من يفعل ذلك تكون لديه حصانة..

ولا يمكن رفع أي قضية أو دعوى عليه..

كنتُ أجري ورأسي مليءٌ بأحداث كثيرة سمعتها حصلت في ظروف مشابهة، خِلتُ أن أي رصاصة قد تأتي من الخلف ستنهي حياتي وحياة (شبير)، وعسى ألا يكون ما يدور بمخيلتي الآن...

مرت دقيقة ونحنُ نجري حتى وصلنا إلى مكان ظنناهُ آمنا...

التقطنا الأنفاس..

وحمدنا الله أننا بخير..

كنا على مقربة من النقطة التي يجب أن نفترق فيها، كان على شبير أن يعود إلى بيته، وكان عليَّ أن أتجه نحو كشمير الحرة..

مشينا دقائق حتى وصلنا إلى المكان المنشود، وقلت لشبير أنني سأفترق عنه هنا، شكرته بشكل مكرر، وأظهرتُ له الامتنان، وقبَّلتُ جبينه وودعته بكل ود.. وجدتُ في عينيه دمعات مسحتها بيدي، وقلتُ له سنلتقي مجددا، وقد يكون لقاؤنا في المدينة المنورة إن شاء الله..

عدتُ بعد أن ذهب (شبير) إلى النقطة التي خبأت فيها ملابس القنص، وارتديتها حتى أمضي فيما تبقى من المسافة حذرا آمنا، كان عليَّ أن أزحف مجددا في جزء من رحلة العودة، كان أمرًا شاقا جدا... عدت إلى كشمير الحرة متسللا كما دخلت كشمير المحتلة مندسًّا، وذهبتُ إلى (توصيف) مباشرة، والذي كان يتوقع عودتي من هنا دون أن يعرف موعد ذلك..

(٧٤)

رحَّب بي وهو مبتسم رغم أنه كان نائما، وسألني عن حالي، وقال لي: كيف كانت رحلتك أيها الكَلِف؟

ابتسمتُ بدوري، وقبل أن أجيب عليه شكرتهُ على أنه يسر لي كل ذلك، ولم أكن أدري إن كنتُ ذهبتُ وفق خطتي كنت أعود حيًّا أم لا، ولكن جزاك الله خيرا على ما فعلت..

ذكر لي أن الطريق الذي اخترته، ولم يأتيك ردٌّ منهُ هي مصيدة الهنادكة لصيدِ من تسول له نفسه الدخول إلى كشمير المحتلة، والطريق الذي أوردتك إيَّاهُ هو الردُّ على مصيدتهم، لم يكتشفوهُ بعدُ..

عموما، مرحبا بك مجددا..

أصبح (توصيف) صديقي..

فأخبرته بما استجد معي..

وطلبتُ منه أن أبيت لديه حتى الصباح، وسأعود إلى إسلام آباد مع شروق الشمس، حيثُ عليَّ التخطيط عقب ذلك إلى الذهاب إلى (أفغانستان)، وإخراج (صبيحة) منها والعودة إلى (باكستان) مجددا... يا لهذا الحب الذي لا يقر له قرار..

في الصباح الباكر، ودعت (توصيف)، وشكرته..

وقدمت له سبيكة ذهبية هدية مني له.. امتنع عن القبول...

لكني أجبرته أن يقبل، ففعل ورد شكري بشكر، وانصرفتُ عنه..

(٧٥)

عدتُ إلى (إسلام آباد)...

وأخبرتني (صبيحة) أن عائلتها خلال اليومين القادمين ستكون في (كابل)، أعددت العدة للسفر إلى أفغانستان، فقد كان من اليسير بالنسبة لي أن أتقدم بطلب التأشيرة من خلال السفارة الأفغانية في إسلام آباد..

ذهبتُ في اليوم التالي إلى السفارة الأفغانية الواقعة في منطقة G-6/3 بالعاصمة، مرورا بشارع (خيابانِ سهروردي)..

أخبرتهم أنني ذاهب للنظر في الأمور التجارية المتعلقة بالمكسرات والفواكه المجففة.. وحصلتُ على التأشيرة..

سألت ممن هم حولي من الأصدقاء عن المخاطر التي قد أتعرض لها في أفغانستان في ظل تكالب الدول على مصالحها الإقليمية فيها، علمتُ من ضمنها أن الطاجيك، والهزارة، والبشتون، والهند، وإيران، وأمريكا، وباكستان، والصين، جميعهم لهم مصالح متداخلة.. وبالتالي الشخص الذي لا يمكنهُ التفريق بين مصالحهم، ومعرفة الصحيح من الخطأ في أفغانستان، قد يتعرض لأمور هو في غنى عنها..

أخذتُ هذه الملاحظات بعين الاعتبار، وتهيأت نفسيا، وكان عليَّ الذهاب إما عن طريق الجو من إسلام آباد إلى (كابل)، أو عبر معبر (طورخم) الحدودي، ومنه إلى العاصمة الأفغانية، ولعل الأسلم هو الذهاب جوا، ولكني أردتُ أن أستكشف الطريق المؤدي إلى مدينة (بيشاور)، ومنها إلى المعبر الحدودي (طورخم)، ومنه إلى (أفغانستان)..

كانت الحكومة التي ترأس (أفغانستان) حينها، يقال عنها أنها سُلِّطت على الأفغانيين من قِبل الأمريكيين عقب أحداث ١١ سبتمبر الشهيرة، وكانت (الهند) تسرح وتمرح جاعلة من (أفغانستان) مقرا لنشر الفوضى في (باكستان)، كذلك كانت لـ(إيران) صولة وجولة في (وادي بنجشير) وتأثير على بعض الشخصيات المقربة منها، وكذلك الإعلام الأفغاني...

كل هذه الأمور السياسية والاجتماعية المتداخلة كانت تنعكس على الوالجين إلى (أفغانستان) والخارجين منها بشكل أو بآخر، صراع القوميات، وعداوة البلدان المجاورة، ونزاع القوى العالمية، وخصام الأحزاب الأفغانية مع بعضها...

هذه معادلات كانت كفيلة بأن تجعل القادم إلى أفغانستان هدفا سهلا للنهب، أو لأي منفعة أخرى..

الضعيف قد يكون سلعة تُباع وتُشترى.. كل هذه المخاوف كانت تحيط بي وأنا أدخل أفغانستان...

كان البشتوني أو الأفغاني إذا رآني يظنني من أفغانستان، بينما بعض الأفغانيين كان قادرا على أن يُميِّز أنني من باكستان، وهذا ما كنتُ أخاف منه، وفوق ذلك لم أكن أتحدث البشتونية، أو الدَّرِيَّة الفارسية التي كانت تُنْطَق في بعض أفغانستان، بالتالي كل من يستوقفني ويستنطقني كان سيعرفُ أنني من باكستان، وهذا في ظل المعطيات الاجتماعية الأفغانية قد يكونُ خطرا عليَّ..

كنتُ إلى جانب هذا التفكير أقول لنفسي أنني دخلتُ الفردوس التي حولها المحتل الهندي سَقَرًا، فما هذه المواجهة أمام تلك التحديات.. ووجدت نفسي أحثو الخُطى نحو هاوية أخرى..

وصلتُ إلى (معبر طورخم) مرورا بمناطق لم آبه لها كثيرًا، رجل الجوازات الأفغاني عند ختمه على الجوازات نظر إليَّ شزرا، لم آبه له، ختم الجواز، فدخلت...

كانت هناك منطقة يجب عبورها إلى الطرف الآخر للحصول على سيارات الأجرة، إما مشيا على الأقدام أو خُصِّصت عربات نقل مثل التي يحمل عليها العمَّال التراب والأسمنت في المملكة، يدفعه رجل أفغاني، وغالبا ما كان يجلس فيها الضعفاء والأطفال، مشيتُ حتى وجدت سيارات أجرة مصطفَّة في قطار طويل...

سفرتي هذه، لم تكن مخطَّطة كما كانت رحلة كشمير، لعلي كنتُ أشعر أنني أدخل بلدة إسلامية، وقادر على التعامل مع إخوتي هناك، ولكني كنتُ متسرعا نوعا ما في هذا القرار، على وجه العموم، كنتُ الآن وسط المعترك، وعليَّ الذهاب إلى (كابُل)..

كانت هذه الأيَّام هي التي تدور فيها المفاوضات بين حركة (طالبان أفغانستان) وبين (الولايات المتحدة الأمريكية) في (قطر) للخروج من (أفغانستان)، الصحف العالمية كانت تنذر عن حرب أهلية وشيكة بمجرد استلام (طالبان) الحكم..

في حين كانت تعاني باكستان من (طالبان باكستان) كانت المجتمعات الباكستانية تظهر بعض رضا عن عودة (طالبان أفغانستان) إلى الحكم، ذلك أن هذا كان سيؤمِّن الحدود الأفغانية التي كانت إلى جانب الحدود الهندية مشتعلة نوعا ما بسبب الاختلافات مع الجانب الباكستاني..

رأيت شخصا يتجهُ نحوي عارضا عليَّ سيارة الأجرة، فقلتُ له: محطة الحافلات، سألني عن المكان الذي أريد الذهاب إليه، فقلتُ له: (كابل)، فقال: سآخذك بسيارتي، امتنعتُ، ولكنه أصرَّ.. فوافقت مقابل حفنة من الدولارات..

كانت الدولارات الأمريكية إلى جانب الروبية الباكستانية وبعض العملات الأجنبية الأخرى عملات مستخدمة في أفغانستان في التعاملات التجارية.. فبالتالي عرض الدولار في التعامل كان أمرًا طبيعيا، بل ربما مقبولا لدى بعض الأفغانيين..

جلستُ مع السائق الذي أظهر لي وده، وراح يشرح لي كلما مررنا من طريق بعض المعالم الموجودة، بتنا متجهين نحو (كابل) والتي كانت تبعد ما يقارب أربع ساعات من (معبر طورخم)..

تعرفتُ عليهِ..

فيما أخبرتهُ عن نفسي أيضا أنني من باكستان، وقد جئتُ في تجارة، لمحتُ في عينيه بعضُ تغيير، ولكني لم أنتبه له، خصوصا وأنه قد حصل ما بيننا بعضُ وُدٍّ..

بعد ما يقارب الساعتين والنصف قال أنَّه يريدُ أن يقف السيارة في أقرب نقطة لتناول الشاي، لم أمانع، بل قلتُ له سأتناول معك..

وقفنا في كشك صغير على قارعة الطريق، فيما طلب هو الشاي ذهبتُ لأشتري شيئا آكلهُ، وعندما عدت كان الشاي قد حضر..

تناولناه، ولم يعجبني مذاقهُ..

ولكني ارتشفتهُ حتى لا أكسر خاطر السائق..

كان ذلك من أكبر الأخطاء التي ارتكبتها في حياتي محسنا الظن بالآخرين، ذلك أنني عوضا عن الوصول إلى (كابل) وجدتُ نفسي مقيدا في غرفة شبه مُظلمة في مدينة (هرات) والتي تبعد أكثر من ١٠٠٠ كم من (معبر طورخم)، وهذا يعني أنني بتُّ منوَّمًا أكثر من يوم كامل دون وعي..

لعنتُ اللحظات التي أحسنتُ الظن فيها على غريب، في مكان مليء بأفاعي المؤامرات، لا تدري فيه... من أينَ تأتيك اللدغة... لا يُهم التفكير في كل هذا الآن، لقد لُدغتُ وأنا الآن أعاني من تبعات تلك اللدغة...

رأسي كاد أن ينفجر من الصداع، رفعتُ صوتي مناديا أي كائن حولي أطلبُ الماء، ففتح لي أحدهم الباب وهو ينظر إلي في احتقار شديد، ويقول:

أنتَ مختطف، باعكَ صاحبك إلينا بثمن بخسٍ، وسنبيعك للأعلى سعرًا، أو سنطعِمَك للهنود، أو نرميك إلى الإيرانيين، لا أعرف ما هو قدرك المحتوم!!.. وخذ الماء.. وبعض طعام.. وهذه حقيبتك، وبالتأكيد ليس فيها مالك ولا هاتفك.. رماهُ إليَّ وولَّى مُدبِرًا..

ماذا عليَّ أن أُناقش وأنا في حالة يُرثى لها، لم أشأ أن أتحدث إليه، آثرتُ الصمت حتى أستعيد قواي، والذي يظهر لي أنهم ممن يتحدثون الفارسية.. كانت اللكنة التي يتحدث بها الأردية لكنة فيها الرطن الفارسي... وهذا يعني أنني هدفٌ طائفي أيضا..

هي فكرة من الأفكار الكثيرة التي راودتني.. شربتُ الماء، وفتشتُ جيوب الحقيبة المخفية، والحمدُ لله أنهم لم ينتبهوا لما فيها..

كنتُ أخبئ المبالغ في جيوب مخفية في حقيبتي ذات الطبقات المتعددة في الأسفل، بالإضافة إلى هاتف صغير جدا بمقدار الخنصر كنتُ أضعه احتياطا عندي، وبالتالي لم أكن آبه للمبلغ الذي سرقوه، والهاتف، فعندي ما يمكنني أن أبلغ به مبلغي وأكثر.. سبائكي الذهبية، ونقودي..

أمضيتُ أسبوعا على هذه الحال، يأتي إليَّ رجل، يرمي إليَّ الماء والطعام ويذهب، إلى أن قلتُ لأحدهم:

- متى سأخرج؟
- ستخرج حين نجدُ من يشتريك...
- أليس عندك أم تنتظرك؟ أو أختٌ تتمنى رؤيتك، أو أخ يحبك، وأبٌ يفتخر بك؟
- لا، قُتلوا في الحرب.. قتلتموهُ أنتم؟
- هل تظنني أمريكي؟
- لا، باكستاني..
- وما شأني؟
- تتدخلون في شؤوننا..
- ليس نحنُ، بل الهند، ونحنُ نساعدكم..
- هههههه.. الهند تساعدنا، وليس أنتم... أنتم أعداء..
- كيف أعداء ونحن إخوة مسلمين؟
- لا أعرف، المسؤولين عني يخبرونني بذلك...
- وأنتَ أليس لك عقل تفكر به..
- اصمت.. وركلني على مؤخرتي، وذهب..

استطعتُ من خلال الأسئلة تحديد توجهاته، فغالبا كان من المنتمين إلى الاتحاد الشمالي الأفغاني المعادين لطالبان وللبشتونيين، وتبعا لمصالحهم الباكستانيين أيضا.. لذلك لم أكن أرجو الفكاك منهم دون أن تحدث معجزة، ربما ينتظرون أن يشتريني

شخص من الطالبانيين ويفك أسري، أو آخر قد يستغلني لمآربه...

يومان آخران أمضيتهما في هذا المكان الضيق والكئيب، حتى الشمس لم أكن أراها إلا من كوَّة صغيرة بالقرب من السقف.. فكرتُ في مهاتفة (صبيحة) لأخبرها بالأمر، ولكن ما الذي ستفعله، لا شيء... لذا تركتُ الأمر للقدر يجري كيفما يشاء..

في نهاية اليوم التاسع في ثلثُ الليل الأخير سمعتُ طلقات نارٍ كثيفة، وصوت قنابل يدوية على مقربة من المكان الذي أنا فيه، حاولتُ أن أتجاوز خوف الأسر والموت، ولعلي قرأتُ في ذلك المكان قرآنا لم أقرأه في حياتي كسيرا حسيرا..

في اليوم العاشر لم يأتيني شخص كما اعتدتُ، ولم يطرق الباب أحد، ولم أعد حتى وقت الظهر أسمع أصوات الرجال وهم يتحدثون فيما بينهم، كانت تلك الأصوات تأتيني من مرتفع، شعرتُ بالجوع... وبت طاويا عليه بقية يومي، وكنتُ أشرب من قوارير الماء التي جمعتها في الأيام الماضية..

في اليوم التالي سمعتُ أصواتا مجلجلة في الأعلى، وتكبيرات، شعرتُ أن الحديث فيما بين الرجال باللغة البشتونية، صرختُ بأعلى صوتي حتى ينتبهوا إلي، بدا لي أن صوتي ضائع بين جلبتهم..

حتى قدم بعضهم إلى الأسفل، وقام بدق الباب ينوي كسرهُ، فيما سمعتُ صوت إطلاق الرصاص، ويظهر أنه كسر بذلك القفل والسلسلة التي كانت على الباب، فدخل... وتفاجأ بوجودي، وصوَّب سلاحه الروسي نحو صُدغي لإخافتي حتى ينال مني الأجوبة، وبدأ يسألني من أنتَ.... فقلتُ له أنني باكستاني وأنا مخطوف... أوه، باكستاني... قالها، وأزاح عني الكلاشنكوف، وأماط عن وجهه اللثام.. فقال لي

نحنُ من طالبان، وقد دخلنا هرات منتصرين...

لم أفهم كلامه من المرة الأولى، فاستفسرتُ منه أكثر:

أنتم ألستم تفاوضون أمريكا، فكيف تقول أنَّكم انتصرتم ودخلتم (هرات)؟

نعم، ولكن دعك من كل هذا، الآن أنا محتار في أمرك، ماذا أفعل بك، أقبض عليك، أم أساعدك؟!.. ولماذا أنت هنا؟

أخبرته بما حصل معي منذ أن دخلتُ أفغانستان حتى هذا اليوم، تلطَّفَ معي في القول، وعانقني، وقال أنني في مأمن الآن، ثم أخذني إلى الأعلى وقدم إليَّ طعاما.. خبز يابس، وماء دافئ.. لم أفكر كثيرا، فتناولته كمن يتناول طعاما شهيا.. كان يحدق بي وأنا آكل، فيما كنتُ أسترق النظر إليه لأرى ردود أفعاله..

كان رجال طالبان منتشرون في المنطقة، رجال على رؤوسهم العمائم السوداء، وفي أيديهم الأسلحة الروسية القديمة، والأمريكية الحديثة، بعضهم كانوا يلبسون نعالا بالية، وآخرون أحذية الجنود.. لم يكن يهمني حاليا إلا أن أسد جوعي، ثم أدبِّر خروجي وخروج (صبيحة) من (أفغانستان)...

اقترب مني، وأخبرني أن اسمه (ملا فهيم الدين)، اعتبرني أخا لك، لقد ساعدني باكستانيون يوم أن هاجرنا إلى (باكستان) حين دخلت (روسيا) بعدتها وعتادها..

كنتُ حينها طفلا، درستُ في (باكستان) في بعض مدارسها الدينية، وعدتُ لاحقا إلى بلدي، وها أنذا أمامك، قمنا بطرد الأمريكان، والآن حان دور أتباعهم، ودور بعض المجاورين الخبثاء..

فقلتُ له أن العالم يقول عنكم همجًا، ويصورونكم أنكم واقعون في العقوق، وتنتهكون الحقوق، والنساء لديكم لا صوت لهن، صوت الرجال الأفغانيين طاغٍ، وفيكم تشدد غير مبرر في الدين، وفي هذا الأمر بعضُ حقيقة...

فحين قدمتم أواسط التسعينات في الحكم أسرفتم في التشدد، وأغضتم الأبيض والأسود، ولم تُعاملوا العالم بلُطف، وخسرتم في نهاية الأمر.. رحل عنكم الروسيون، ولكن عاد إليكم الأمريكان....

فماذا استفدتم؟ أقلقتم الجيران، وأعطيتم العالم فرصة للعبث والتدخل في شؤونكم وإن كان ذلك عنوة..

سمع مني في هدوء، وقال في الأخير: دعنا لا نتحدث في هذه الأمور الآن أنت ضيفي، ويكفي أن الأمريكان الآن يولون مدبرين..

استفسرتُ منهُ أكثر عن قوله هذا، فأنا فعليا كنتُ أجهل ما يحدث في (أفغانستان) في العشر الأيام الأخيرة التي قضيتها، فراح يشرح لي كل شيء، وأخبرني أن الأمور الآن سيئة، المطارات مغلقة، والرحلات معلقة، من الأفضل لك أن تعود إلى باكستان حتى لو كان ذلك مشيا على الأقدام..

أخبرني أن عالي (أفغانستان) أصبح سافلها، وأراني في جواله المقاطع من مطار (كابل)، وكيف ازدحم الأفغانيون فيه، وكيف أنهم مجتمعون حول طائرة وهي تتهيأ للاقلاع، وكيف سقط لاعبٌ أفغاني حين تعلق بطائرة حطت رحالها نحو (أمريكا)..

أصابتني فجيعة، وتذكرتُ صبيحة التي كانت ذكرت أنها ستكون في أفغانستان خلال اليومين القادمين، وهذا يعني أنها في (أفغانستان) منذُ أسبوع.. شرحتُ لصديقي الجديد (ملا فهيم الدين) حقيقة ما جئتُ من أجله، فقال بنخوة

الأفغانيين باعتزاز، سأساعدكَ ما بقيتُ حيا، وهذا وعدٌ بشتوني لك.. واتصلتُ عقب ذلك بصبيحة، حتى أعرف منها تفاصيل وجودها في أفغانستان...

كانت (صبيحة) تنتظر اتصالي بشغف، وعاتبتني على الغياب، فقلتُ لها أن عارضا ما لحق بي، بالتالي لم أستطع التواصل معك، وما لبثت أن أخبرتني عما يحدث في كابل بالتحديد، فقلتُ له لقد علمت، ولعلنا نستفيد من هذه الفوضى ونخرج من هنا..

فقالت: عجِّل في الأمر، لأننا سنخرج في أقرب فرصة ممكنة عائدين إلى الهند، جميع البعثات الدولية تخرج من (أفغانستان) لأنها لا تعرف ماذا ستؤول إليه الأمور هنا... يجب أن نتصرف خلال اليومين القادمين..

أخذتُ منها عنوانها، وأخبرتُ فهيم الدين أنني سأذهب، وأنه عليَّ أن يساعدني في شراء هاتف جوال أستطيع فيه تشغيل الشبكة، فجعني (فهيم الدين) بعرضه، وقال:

- الجوال الجديد سأحضر لك إياه، وسأذهبُ أنا معك..
- لا يا رجل، لا أريدُ أن أُشغلك عما أنتَ فيه..
- سأذهبُ معك، حتى أُعيدكَ و(صبيحة) إلى باكستان..

كانت المسافة بين (هرات) و(كابل) طويلة..

قد نمضي في سفرنا هذا خلال السيارة ما يقارب (١٧) ساعة، أمضيناه بين أكل، وشُربٍ، وحديثٍ، وصلاة، ونومٍ، وجدال في الشأن الأفغاني، لم أكن متفقًا مع (فهيم الدين) في كل ما تقوم به (طالبان)..

(٧٦)

دخلنا (كابل)، وكان (فهيم الدين) تذكرة مرور عند كل نقطة تفتيش نمرُّ بها، لا أعرف ماذا كان يقولُ لهم، المهم أنني كنتُ محظوظا به، لا أدري من هم الباكستانيون الذين أحسنوا معاملته، لكنني كنتُ الآن أقطف ثمار إحسانهم من خلال (فهيم الدين)، لقد دعوتُ في نفسي للجميع...

لم أكن أعرف شيئا في (كابل) كان (فهيم الدين) يسألني وكنت أخبره أين سنذهب، وقد أخبرته بجميع التفاصيل التي أخبرتني عنها (صبيحة)، اتفقنا على أن نلتقي في (فندق سيرينا)..

وصلنا الفندق، ونزلنا فيه، كان علينا أن ننتظر إلى صباح الغد حتى تأتي (صبيحة)، ونرتب الأمور الأخرى، وكنتُ أريد الخروج من (أفغانستان) بطريقة رسمية كما دخلتُ..

المشكلة التي كانت ستعترينا هي (صبيحة)، فجواز سفرها (هندي)، وليس بها تأشيرة دخول إلى باكستان، إما أن أتقدَّم أنا شخصيا بذاك الطلب، أو يقوم (فهيم الدين) بترتيب الأمر، فوعدني بخير..

فيما قررت أن أُجرِّبَ بنفسي أيضا مستفيدا من حالة الفوضى هذه، وقرَّرتُ بعد اللقاء بصبيحة أن آخذ أوراقها الثبوتية إلى السفارة الباكستانية في (كابل)، وأشرح لهم الأمر، فلعلَّ وعسى أن أظفر بما أريد..

(٧٧)

مُنيةُ القلب..

كنتُ على وشك اللقاء بها مجددا خلال أسبوعين في ظروف عصيبة، هي لم تُدرك ما مررت به، ولم أشأ أن أقلقها، أظهرتُ أن كل شيء على ما يُرام، وسأقومُ بإخبارها لاحقا متى ما سنحت لنا الفرصة لاستعادة الذكريات..

كانت الفوضى والتخبط الذي تعيشهُ (كابل) بسبب خروج أمريكا المفاجئ وغير المتوقع، وتقدُّم حركة طالبان نحوها صبَّت في مصلحتنا، تشتَّت كثيرُون...

حتى السفارات خرجت عن سيطرة الدبلوماسيين، بعضهم لاذ بالفرار في أول فرصة، والآخر كان ينتظرُ الفرج عن طريق الدول التي لا زالت موجودة في (أفغانستان)، ومنها (باكستان)، كثير من الدبلوماسيين أخرجتهم باكستان عبر طائراتها، (كابُل) هو المطار الوحيد الذي ظلَّ يعمل..

وصلت (صبيحة) فندق سيرينا وهي مغطاة بالعباءة الأفغانية، استقبلتها، وأخبرتها أن تلحقني في الغرفة، كانت خائفة، وكان خوفها طبيعيا، أخذتُ منها جواز السفر، وأوراقها الأخرى، واتَّجهتُ نحو السفارة الباكستانية..

فيما طلبتُ من (ملا فهيم الدين) أن يُؤمِّنَ لنا سيارة أُجرة أو يوكِّل أحد معارفه بإيصالنا إلى معبر طورخم الحدودي، ففعل ذلك حبًّا وكرامة، وبشَّرني بعد دقائق أن السيارة جاهزة، متى ما عدت إلى الفندق أخبرني، وسآتي إليك..

دخلتُ السَّفارة الباكستانية مثل أي مواطن عادي يواجه مشكلة، ويودُّ الخروج إلى باكستان، أعطيتهُ بطاقتي الوطنية، وجوازُ سفري، رحَّب بي مُبتسما،

وأمرني بعرضِ المشكلة، وقدَّمتُ إليه باليدِ اليُسرى مشكلتي...

ما إن نظر إلى الجوازِ الهندي نظرَ إليَّ في شكٍّ، وأطال النظر.. تارة في الجواز وتارة نحوي، وتارة في جواز سفري وأوراقي الثبوتية...

ثم أخذَ يبحث في الكمبيوتر عن هويتي، وأطال البحث، ثم قام ليخبرني أن جواز السفر الهندي هذا غير مرتبط بي، فجواز من هذا، وماذا تُريد؟

لم أُفصِّل له كثيرًا، لكني أخبرتهُ بأن الفتاة كانت في السعودية، وأنا مقيم في المملكة أيضا، لكنها جاءت إلى أفغانستان، وصادف أن كنتُ هنا، وكما ترى الآن الموضوع في (كابل) حيصَ بيص، وهي في مشكلة، وأريدُ أن أُساعدها...

حملقَ في وجهي كأنَّه لم يصدق روايتي التي رويتها له...

ذهبَ إلى مكتبٍ آخر، وعاد بعد دقائق، وقال: دعها تذهب إلى سفارتها، ستقوم سفارتها بخدمتها بالطبع...

نظرتُ إليهِ وكلِّي رجاء، وقلتُ له بأن موظفي السفارة الهندية خرجوا من (كابل)، وأنت تعلم ذلك، ما بقي أحد هُنا، وهي الآن معي.. أريد تأشيرة حتى لو لأيام.. أرجوك، وسأقومُ بتنفيذ كل خطوة مطلوبة مني..

غابَ لدقائق أُخرى، وعاد بابتسامة، وقال بزهو: تفضَّل، يبدو أنه أقنع مديره بوضع التأشيرة على جواز السفر الهندي..

فتحتُ جواز السفر..

ووجدته قد ختم لها لثلاثة أشهر.. لقد صنع هذا الفتى يومي، شكرتهُ كثيراو وشكري كان ممزوجا بامتنان... وودعتهُ..

خرجتُ وأنا أحملُ في يدي حلمي..

حلمٌ طاردتهُ حتى أمسكتُ به، ذلَّل الله لي الصعاب، وسخر لي من عباده رغم أن صنفا من عباده قد نكَّل بي.. ولكن في نهاية المطاف.. الحمدُ لله..

شعرتُ وأنا أعودُ إلى الفندق أن لي جناحان أطير بهما مُسرعًا نحو صبيحة، ليس من الضروري أن أدخل من باب الفندق، بل سأحلِّق، وسأصل مباشرة إلى غرفة الفندق، وسأدق النافذة عوضا عن الباب... كان ما أفكر فيه مستحيل، ولكنهُ حديثُ نفسٍ خالجني آن الفرح..

في الاستقبال كان (فهيم الدين) ومعه رجل آخر ينتظرانني..

سلمتُ عليهما، وأخبرتهما أنني سأعودُ الآن، وقد بشَّرتُ فهيما أنني حصلتُ على التأشيرة لصبيحة فهلَّل فرحا بطريقته المضحكة نوعا ما..

تركتهما في الاستقبال، وصعدتُ إلى صبيحة... وقدَّمتُ لها جوازها المختوم بالتأشيرة الباكستانية، وقلتُ لها: هاك، وفيتُ بوعدي الأوَّل، نحنُ ذاهبون إلى باكستان، ولن يُعيقنا أحد...

أظهرت خوفها من الطريق، وقلتُ لها: لا تقلقي، لديَّ صدِيقٌ من النظام الأفغاني الجديد أَمَّن لي السفر.. هيَّا، تجهزي، سنخرجَ الآن..

وخرجنا متجهين نحو الاستقبال..

عرَّفْتُ (صبيحة) على (الملا فهيم الدين)، وقلتُ لها: أن هذا من أحسنَ إليَّ في (أفغانستان)، أما هذا فهو (عُمر بلخي) سيأخذنا إلى (معبر طورخم)...

أصلحَ البلخي عمامته، واستحى..

التفتُّ إلى (فهيم الدين) وقلتُ له معانقًا: لا أعرفُ كيف أردُّ لك الجميل، لو قدمتَ إلى باكستان أخبرني، ولو قدمتَ إلى المدينة، أبوابي ستكونُ مفتوحة لك، بل سأسعى لأن أراك في المدينة قريبا.. فطلب مني أن أدعو الله لأفغانستان بالثبات والاستقرار، فوعدته..

كما طلبتُ منه ألا ينساني، تبادلنا الأرقام الأخرى، وطلب مني العفو بأنه لم يستضفني في بيته، فهو بعيد، فقلت له يا فهيم الدين، لا تقلق، أنتَ البيت الذي سكنتُ فيه في أفغانستان، والمقام الذي استقرَّت فيه سفينتي، أنا الآن سأبحرُ عنك، ولكنني على أمل أننا سنلتقي قريبا إن شاء الله...

أخرجتُ من جيبي سبيكة ذهبية كنتُ وضعتها في مظروف، ووضعتها في يده، لكنه أبى، وأرادَ أن يقسم بأنه لن يقبل مني أي شيء، لكني سبقتهُ، وأقسمتُ عليه بأن يقبل مني، لم يكن يعلم أنها سبيكة ذهبية، بل كان يظن أنها نقودا.. وستساعد السبيكة الذهبية (فهيم الدين) لكي يغيِّر من حاله.. قد يُصبح تاجرًا عما قريب.. فالبشتونيون يحبون التجارة، وهم فيها ضليعون..

أَجلستُ صبيحة في السيارة، وجلست عقبها، وقلتُ لصاحبنا البلخي هيا أيُّها البطل، لننطلقَ، السائق البلخي كان يضع سلاحا روسيا كبيرا في مقدمة سيارته، فهو السائق، وهو الحارس، وهو الأمين إن شاء الله، ألقيت نظرة أخيرة على (كابل) قبل الخروج..

كابُل!.. أيَّتُها المدينة الأبيَّة.. العصيَّة على المحتلين، جئتُكِ في الفوضى، وفي الفوضى صادرٌ عنكِ، لكني سأعودُ إليك حينَ تكونينَ زاهيةً وقد أدخلتِ سيفك البتَّار في غمده..

(٧٨)

لم يترك السائق (البلخي) قصة تراثية أفغانية إلا وحدثني عنها..

كان كثير الكلام، وبفضل حديثه علمتُ الكثير مما كنتُ أجهلهُ عن أفغانستان، فيما ظلت (صبيحة) متوترة بعض الشيء، كانت الأمور متوترة أصلا، فقد نصادف في طريقنا ما لا يُحمد عقباه، لكن (البلخي) كان يدرك كيفية تفادي الأمور، صادف عدد من الرجال الأفغانيين المتقلدين أسلحتهم الروسية والأمريكية، كانوا يتحدثون فيما بينهم، ثم يتقدم البلخي نحو (طورخم) حتى أوصلنا إلى المعبر..

لم يتفق معي على الأجرة مسبقا..

ولم أسأله..

لكني قمتُ باعطائه أكثر مما يتوقعهُ، شكرني كثيرًا حين خرجنا من المركبة، بل خرج وعانقني بشدة، وقال لي إن أتيت مجددا إلى (أفغانستان) أخبرني، سأخدمك بما أستطيع، تبادلتُ معهُ الأرقام، فقد كان أمينا في عمله..

ووعدتهُ بأنني إن عدتُ سأخبرك..

تقدَّمتُ أنا وصبيحة نحو الجوازات، طوابير كبيرة كانت تنتظر، حالةٌ من الفوضى بادية في المكان، كان علينا أن نتماسك حتى حان دورنا، ختم جوازي، وما إن وقعت عينُ الموظف على الجواز الهندي أوقف حركة يده في المنتصف..

ثم أكمل وابتسم.. مرحبا..

(٧٩)

دخلنا الحدود الباكستانية، فعاد الاطمئنان إلى وجه (صبيحة)..

حَمِدَت الله على ذلك، أصبحنا في مأمنٍ..

كان علينا الآن أن نستقل حافلة من (طورخم) نحو (بيشاور)، ومنها إلى (إسلام آباد) محطتنا الأخيرة مرورا بعدة مدن..

كانت المسافة التي تفصلنا عن العاصمة ما يقارب أربع ساعات، وقد تكون أكثر وفقا لسرعة السيارة، وتباطؤها..

سألت صبيحة هل تريدين تناول الطعام؟

فأخبرتني أنها بحاجة إلى ذلك، اختارت من الباعة المتجولين ما اشتهتهُ، فركبنا الحافلة، وقلتُ لها سأجلس بجانبك، وسأنام قليلا...

تلك نومةُ المنتصر الذي عاد للتو من معركته الأخيرة.. ابتسمت، هي الأخرى أسندت رأسها على كتفي، وأرادت النوم..

لم أنم..

بيد أني أغمضت العينين..

ورحتُ أفكر فيمن أطلب منه المساعدة في إسلام آباد، كنتُ أستطيع الذهاب إلى أي فندق، لكني فضَّلتُ أن أذهبَ إلى صديقي (حيات)، كنتُ أثقُ فيه، فاتصلتُ به، وأخبرته أنني قادم إليك، ومعي شخصٌ آخر، أحتاج الجلوس معك، والنقاش حول أمر يهمني رأيك فيه.. فرحَّبَ، وسألني عن توقيت الوصول فأخبرتهُ..

(٨٠)

«...محتارة بأن أناديك أبي الذي أحسن إليَّ أم أبي الذي قتل أبي؟

أيا كان مستوى إحسانك إليَّ لكني على أية حال علمتُ أنك قاتل أبي (وجاهت)، وأسوأ ما يمكنني التفكير فيه أنك نِلتَ منهُ على حين غِرَّة، بعد أن وثقَ فيكَ، وأمنَك على عائلته، من أجل مال ومنصب سيزول عنك عما قريب مهما طال أمده..

نظامك الذي تنتمي إليه احتلَّ بلدي، وسلب حُرِّيَّتِي، وأنتَ غدرت بأبي، واختلستَ ماله، وانتزعتَ عقاره، وقتلته، وشتَّتَّ عائلتي..

أمي وأخي مدفونان في مقابر مجهولة..

وبالتأكيد تعلم عن مصيرهما..

ولكنك أخفيت عني كل شيء، لم تفضحك إلا مذكراتك التي كنت تكتبها.. في قلبي حُرقة، ولا يطفئ لهيبهُ إلا حين أعودُ إلى وطني حرًّا من محتلِّيه..

لديك عائلة...

كيف ستشعر إذا فقدتها؟

كيف ستشعر إذا قتل شخص ما ابنك؟ وكيف ستشعر إن ماتت زوجتك؟ أمك؟

كيف ستشعرُ أسرتك لو قُتِلت أنتَ غِيلة...؟

ودُمِّرَ بيتك.. الذي في الحقيقة هو بيت أبي..

أسئلتي هذه..

لا أريد لها جوابا لأني مررت بها، وأشعرُ بمرارتها..

وسأظل ألعنك ما بَقيتِ الحياة في عروقي..

سأهربُ الآن بعيدا عنك..

كل مذكراتك لدي مصورة..

وسأخبر الناس من خلفي أنك وأمثالك عوضا عن زراعة الزعفران والتفاح، تزرعون الغل والحقد في كشمير..

وتبذرون أجساد الكشميريين في الأرض عوضا عن المحاصيل الزراعية..

ولكن ماذا ستحصدون إن زرعتم أجسادنا، وسفكتم دماءنا على أراضينا المحتلة؟ يا أشوك! إن الأجساد لا تنبت إلا الأجساد، وستظل النساء تلدنَ مقاوما كلما دُفن مقاوم..

ولا تنسى أبدا أنك ترتع في مرعى أبي، وأن كل ما صرفته عليَّ كان من حرِّ ماله.. شُلَّت يمينكَ، وقض الله مضجعك، أنهي رسالتي هذه بالبصقِ عليكَ، وعلى عائلتك، فأُفٍّ عليك وتُف»..

كانت هذه رسالة صبيحة إلى أشوك أثناء خروجها من (أفغانستان)، أخبرتني أنها أرسلت الرسالة، ومزَّقتِ الشريحة، وقامت برميها أثناء عودتنا إلى (باكستان)..

سيجنُّ جنون (أشوك) حين يقرأ ذلك، وسيحاول البحث عن (صبيحة) بشتى الوسائل، لكنه لا يدرك أن (صبيحة) لم تعد باقية في (أفغانستان)..

(٨١)

قابلني (حيات) بترحاب كبير كما كان يفعلُ دائما..

كان قد ذكر لي أنه سيأتيني بسيارته إلى محطة الحافلة في (فيض آباد) وبالرغم من أنني أكدت له أن بإمكاني القدوم عبر سيارة الأجرة أبى إلا أن يقلِّني بسيارته بنفسه، وعندما رأى معي ضيفا لم يعتد أن يراه معي، نظر إليَّ نظراتُ تساؤل..

جلسنا في السيَّارة، وقلتُ له: سأجيبُ على جميع أسئلتك..

واستأذنتُ من (صبيحة) فسردتُ له جميع ما كان يتعلق بها..

كان ينظرُ إليَّ ما بين مبهوتٍ وغير مصدِّقٍ، فقد اعتاد مني الهدوء والسكينة، فيما الذي سمعهُ مني وصفهُ بالمغامرات السينمائية التي لا تعكس شخصيتي..

المهم..

نحنُ الآن بين يديك..

وسنمضي في بيتك ليلة واحدة..

عقبها سأقوم باستئجار منزل لأيَّام أو أشهر في إسلام آباد، لا أعلم بالتحديد، وأرجو منك أن تساعدني في ذلك..

حسنا..

على الرحب والسعة..

ومنزلي مَقيلكم إلى ما تشاء، سأسعد بذلك..

شكرا لك أيها الصديق الوفي.

(٨٢)

في اليوم التالي من دخولنا إسلام آباد بحثنا عن منزل نسكن فيه، وانتقلنا مؤقتا إلى جناح في فندق مستواه لا بأس به..

وآثرتُ أن أقتصد في صرفِ المال لاستخدامه لأطول فترة ممكنة..

فقد انقطعتُ عن العمل بسبب سفري هذا..

فبالتالي كان عليَّ أن أسدد وأُقارب حتى أعود إلى المدينة المنورة، والعمل من جديد..

وأول ما فعلته بعد أن استقر بنا النوى في إسلام آباد أن طمأنتُ أمِّي، وسردتُ لها كل شيء، كما أنني أخبرتها بأنَّ (صبيحة) معي الآن، وجعلتها تتحدث معها..

كما قلتُ لأمي أنني أريدُ أن أتزوَّج بها، وعليكما أنتِ وأبي أن تأتيا إلى باكستان مع بعضِ أفراد العائلة، وتتحدَّثا بشأنِ ذلك مع (صبيحة)، فإن من الاعتزاز بكما، وبها أن تتحدثا إليهما كونكما والداي، وكونكما والداها أيضا بعد أن تأكد لها أنه ما بقي من عقبها أحد، فوعدا بالمجيء في قادم الأيَّام..

أما (صبيحة)..

فقد وجدتُها وقد انكمشت على نفسها جراء ما حصل خوفا مما تركته خلفها، أو من مستقبل ترى فيها أن (أشوك) قد يلاحقها..

فطمأنتها أنك في مأمن في باكستان، وإن عُدنا إلى المدينة المنورة فلا سبيل إليك، فالقانون يحفظنا.. فقرِّي عينًا..

(٨٣)

لم يبق لـ(صبيحة) أحدٌ سواي..

كانت هي السند لي..

وكنتُ العضد لها..

وخلال وجودنا في إسلام آباد كنا نخرجُ سويا إلى أرجائها، ما بقيَ معلم من معالم إسلام آباد إلا وزُرناه..

أريتها ألوان باكستان..

كيف تعيشُ الطبقة المخملية؟ وكيف تمضي أيَّام الساسة الباكستانيين في البرلمان؟..

كما زرنا الأحياء الفقيرة، والمتاحف الوطنية والأثرية، أريتها من الأضداد ما كانت تعرفه في الهند، ولكنها رأته في باكستان بصورة مختلفة كون أكثر قاطنيها مسلمين..

كانت تستنشق هواء إسلام آباد، وتقول أنَّها تشمُّ رائحة الحريَّة حقا هنا، ذَكرَت اختناقها واختناق الكشميريين بشكل عام في كشمير المحتلَّة، فكنتُ أواسيها، كذلك كنتُ أُذكِّرها مازحا ما كانت تقوله لي عن كشمير وتُنكر جملة وتفصيلا ما يحصل فيها في بدايات تعرُّفي عليها..

كانت تبتسم، وليتها تبقى باسمة الثغر دوما؛ لأنَّني كنتُ أشعر حينها أنه يجبُ أن أُقيِّد تلك اللحظة في ذاتي، أو أتقيَّد أنا فيها إلى الأبد.. وكانت تَحمَرُّ خجلا حين أقولُ لها ذلك، فأتخيَّل لحُمرة وجنتيها روابي كشمير وسهولها المزهرة في الربيع..

(٨٤)

وردني اتصال ذات يوم من جهة حكومية، أبلغني الشخص المتصل أنه يجب عليَّ الحضور في الساعة المحددة لمقابلته في الخارجية الباكستانية..

لم تكنِ العادة أن يقوم مسؤول ما في الخارجية بالاتصال على شخص ويطلب منه الحضور..

شعرتُ في قرارة نفسي أنَّ هذا الأمر يتعلق بـ(صبيحة) حتما، لكني أخفيتُ ذلك عنها

وزرتُ الخارجية الباكستانية في الموعد الذي حدده الموظف المسؤول..

دخلتُ عليهِ وسلَّمتُ..

هشَّ في وجهي وبشَّ..

وأخرجَ لي وثائق (صبيحة)، وقال لي:

من المؤكد أنك تعرف من هذه؟

طبعا، أعرفها، وليسَ خافٍ عنكم شيئا، وقد جاءت معي في ظل الفوضى التي أصابت أفغانستان، وقد ذكرتُ ذلك أثناء تقديمي للتأشير لها في جوازِ سفرها..

أدركُ ذلك..

إذًا ما الذي يجب عليَّ فعله؟

لا شيء، أردنا أن نتعرَّف عليك عن قُرب، ومن جلبتها هنا هي ابنةُ رجل دبلوماسي هندي، ولهذا الأمر تبعاتٌ..

صحيح، ولكني أرجو منك على الصعيد الشخصي أن تَتفهَّمَ موقفي، ومن ثم لك الحق في اتخاذ ما تراهُ مناسبا..

الحقيقة أن الدبلوماسي راسل الدول المجاورة، وأوضح في مراسلته أن الفتاة مفقودة، فلو وجدتموها، يرجى منكم المساعدة في إعادتها إلى الهند..

الدبلوماسي يكذب، وهو على علم تام أن (صبيحة) نأت عنه باختيارها...

وسردتُ له جميع التفاصيل التي مررتُ بها ابتداءً من الرياض وحتى جلوسي أمامه الآن..

وطلبتُ منهُ أن يساعدني.. فأنا ابن بلده، وهي كشميرية، وله أن يحقق في أوراقها الثبوتية ليعلم صدق ما أقول..

والباكستانيون بشكل عام يُرحِّبون بالكشميريين، بل يسهلون لهم الإقامة في باكستان، ويعاملونهم معاملة خاصة، كون جزء كبير منهم في حقيقتهم ينتمون إلى أرضِ باكستان، ويحبونها، ويشجعون منتخبها أمام الهند، ويُظهرون الفرح والسرور إن فاز المنتخب الباكستاني على الهندي في لعبة الكريكيت بالتحديد، وبقية الألعاب والميادين الأخرى..

نظر في وجهي..

ورفع خطاب الخارجية الهندية الموجه إلى الخارجية الباكستانية..

ومزَّقَهُ..

وقال:

فلتنصرف في عونِ الله..

(٨٥)

عدتُ إلى الفندق..

وقلتُ لـ(صبيحة) أنني سأذهب مع صديقي (حيات) إلى مقهى في أحد الأحياء، إذ اعتدنا معا أن نأتي إليه بين الفينة والأخرى، نحتسي القهوة، ونتحدث في أحاديث كثيرة..

بعضها شخصية نتقاسم فيها همومنا، وبعضها نقاش عابر...

وجل حديثنا على الأغلب يدور حول السياسة الباكستانية وتأثيرها على العلاقات مع الدول العربية على وجه الخصوص، والعالم على وجه العموم، نقاشنا دائما ما كان ينتهي على نقاط نتفق عليها..

المقهى عبارة عن مكان ملموم..

جمعٌ من الناس حين يجلسون، حتى ولو لم يرعوا آذانهم للآخرين أصواتهم ستصل إليك، وسيصل صوتك إليهم، وقد يفتح ذلك باب تعارف فيما بينهم..

حدثت (حيات) بشأن (صبيحة)، وأنني سأتزوجها، وسأنتقل عقب ذلك معها إلى المدينة..

وطلبتُ منه أن يخبرني عن وكالة سفر تستطيع ترتيب الأمور المتعلقة بالتأشيرة وغيرها.

فوعدني بأنه سيبحث عن جهة مناسبة..

وسيبقيني على اطلاع متى ما توفرت لديه المعلومات..

(٨٦)

- السلام عليكما ورحمة الله وبركاته..

سمعنا صوتا من الخلف، فالتفتنا معا، فوجدنا رجلين يقفان مُبتَسِمَيْن.. كان (حيات) على معرفة بأحدهما، فعرَّفني عليه، هذا (عسجد) سعودي يقطن إسلام آباد، وهذا (فيصل)، باكستاني مقيم في المدينة المنورة..

وأشار إليَّ بيده..

- أهلا وسهلا بكما..

- عسجد؟ يعني الذهب في اللغة العربية، ولم آلفه في السعوديين، اسم جميل..

- صحيح، شكرا لك..

- العفو..

- سمعتكما تتحدثان عن احتياجكم للتأشيرة إلى المملكة، يمكنني مساعدتكما في هذا الصدد..

- فيصل يريد ذلك..

سعدتُ لهذا الكرم السعودي المباغت..

والسعوديون بطبعهم كرماء، فلا زلتُ أعيشُ بينهم، وأعرفهم، فهم إن وقفوا معك، وقفوا حتى الرمقِ الأخير من حياتك...

وإن هم عادوك، فكان الله في عونك..

شعار السيفين والنخلة خير عاكس لطبائعهم..

(٨٧)

عدتُ وقد فتح الله عليَّ الكثير من المُغلقات، لقد قام الموظف في الخارجية الباكستانية بتمزيق الطلب المقدم من الخارجية الهندية، وهذا يعني أن باكستان لن ترد على الطلب، أو أنها ستخبرهم بأنه لم يدخل أحد باكستان باسم (صبيحة)..

كما أن صديقي الجديد (عسجد) وعد بمساعدتي في الحصول على التأشيرة، أصبح كل شيء على ما يرام، بفضل الصداقة التي تجمعني بـ(حيات)، وصدفة جمعتنا بالصديق السعودي في المقهى... وحمدتُ الله..

عدتُ إلى (صبيحة)...

والتي وجدتها قد أعدَّت طعاما كشميريا سنتناوله معا..

لم أخبرها بما واجهته في الخارجية..

ولا بالمساعدة التي وُعدتُ بها بشأن التأشيرة..

ولا بطلبي من والدايَ بالقدوم إلى إسلام آباد للزواج بها..

ولم تذكر هيَ شيئا في هذا الصدد..

فكرتُ في قرارة نفسي أنني سأقوم بمفاجأتها تدريجيا بالأمور..

كنتُ قد وفيتُ وعدي لها بأنني سأُخرجها من كشمير..

بقي عليَّ أن أعود بها إلى المدينة المنورة حيثُ أقيم، هذا الأمر كان يتطلَّب بعض التروُّيث للتغلُّب على التعقيدات المُتَعَلِّقَةِ بالسفر، والزواج، والأوراق الثبوتية، واللهُ كفيل بأن يجلب الخير المنتظر..

(٨٨)

مضتِ الأيَّام في أحسنِ حال، قدم أَبِي مع أُمِّي إلى إسلام آباد، بتنا معا في مكان واحد، وقد تحدَّثت أمي مع (صبيحة) بشأن الزواج، فلم تُمانع بالطبع، كنتُ مُنيَتَها، كما كانت هي مُنيَتِي، حضَر لفيف من الأصدقاء والأقارب حفل زواجنا.. وعلى رأسهم (حيات)، وصديقي الجديد (عسجد)..

بدا وجهُ (صبيحة) ممزوجا من مشاعرِ السعادة والحزن...

الحياء والبسمة على ثغرها..

ولون الشَّفقِ في عَينيها...

جلستُ معها مهنئا ومواسيا في آنٍ معًا، فالفتاة في هذه الأوقات ستكون أسعد لو كانت لها أم أو أخت ترعاها أو تسندها..

كانت سعيدة لأنني سأكونُ في حياتها ظلا ظليلا.. وحزينة لما ذكرتُ..

قلتُ لها وقد وضعتُ يداي في يديها، وعيناي في عينيها...

أنا وحدي مجموعُ عشيرتك..

النهرُ إذا عطشتِ..

والنخلة إذا جُعتِ..

والوطن إن شرَّدوكِ..

والمأوى إذا أبرقتِ السماء وأرعدت..

والدوحة إن أجدبتِ الأرض، والمستقر إن ظَعَنتِ، والمهجر إن نَزَحتِ..

عيناك التي تحملانِ شفق الغروب، ستشرقان بشمسي..

وليلهما سيكون مضيئا ببدري، وسترعاكِ نجومُ أفكاري.. أُقسمُ لك بذلك..

قرِّي عينا يا (صبيحة)..

فالمدينة المنورة، جوارُ النبي صلى الله عليه وسلم سيكون مستقرنا الأخير..

وعدتكِ أنني سأخرجكِ من جحيم الهندوسي الذي اقترف في أباكِ وعائلتك ما يُقترفُ في كشمير في غَداتِهَا وعَشيِّهَا، وقد وفيتُ بذلك..

وإنِّي أعِدُكِ ثانية أنَّكِ ستكونين أسعدَ الناس..

أما تدرينَ أنَّكِ منتهى آمالي؟؟!..

الآن..

ونحنُ على عتبةِ الزواج أقسمُ لكِ بالذي فلَقَ الحَبَّ والنوى، أن بذور حُبِّي لك ستثمر شجرة ظليلة، صحيح أنَّنِي لا أستطيعُ أن أعوضك مشاعر الأُمُومَة، والأبُوَّة، والأخوَّة، ولكن...

سأكونُ لكَ العالم كلهُ، سأحصرُ لكِ الأيَّام وأعدُّها عدًّا معكِ، سنتغلَّب على جميع الآلام، ثقي بي..

لا أحبُّ أن أرى في عينيكِ لونُ الشَّفق، بل بَرِيقَ ابْتِهَاجٍ، وَوَهْج البِشر، هيا، كوني كشمير المُحتَلَّةِ في جمالها، والحُرَّة في جذلها وتهلُّلها..

أمضيتُ معها وقتا قبيل الزواج، أخرجتها من الحزن الذي كانت تعيشُ فيه، هي مشاعر طبيعية تجتاح النفس البشرية، آن الفرح أو الحزن، وكلنا نحتاج إلى سندٍ حين نشعرُ أن العالم من حولنا أصبح كئيبا إلى الحد الذي لا يُطاق..

(٨٩)

أشهر مضت بعد زواجنا في إسلام آباد، أخرجت (صبيحة) نفسها من القلق الذي كانت تعيشهُ..

فيما عملتُ أثناء وجودنا في (إسلام آباد) على تهيئة الأوراق الثبوتية المتعلقة بزواجنا، وما إن انتهيتُ منها حزمتُ حقائبي نحو (المدينة المنورة)..

المدينة التي أحببتُ العيش فيها..

والتي أمضيتُ فيها طفولتي، وصباي، والآن شبابي.. بين حرِّها وقرِّها، أُحُدِها، ومسجد نبيها، وساحاته...

حفظتُ فيه القرآن بين أساطينه البيضاء..

سأعودُ إليها، وأرجو أن أبقى على ظهرها ما دامتِ الحياة، ويحويني بطنها بعد عمر طويل..

بعد يومين كنتُ في مطارِ الأمير محمد بن عبد العزيز مع (صبيحة)، ذكرتها بأيَّامنا السالفة هنا، ومن ثم ذهبنا مباشرة إلى الحرم النبوي، صلَّينا النافلة شكرا، واتجهنا نحو ميدانِ سيد الشهداء كي أفي بوعدي معها بتناول وجبة (البيك) فيه..

وعلى سفحِ جبل الرُّماة في ثُلُثِ اللَّيلِ الأخير بسطتُ الخوان، وبجانبي (صبيحة)، وكأنَّ كشمير تجسَّدت لي فيها...

فقُلتَ لها: لم أزر كشمير كما أردت، ولكنَّني أُعوِّض ذلك فيك، فأنتِ (بُحيرة دال) الكشميرية، وعلى شَطّكِ سيمضي بقية عُمري...

النهاية

إذا وصلت إلى هذه الصفحة فهذا يعني
أنك قرأت الرواية كلها أو جزء منها،
سأستفيد من ملاحظاتك إن كنت قادحا
لها، أو مادحا فيها، ذلك أن هذه الأوراق هي
العصارة البكر لزيتون أفكاري، تلك الأفكار
التي لم تقبلها دور النشر الكبيرة، وقبلتها
الدور الأخرى لنشرها بمقابل مادي، فكان
قراري أن أضع هذه الكلمات بين يديك
لتقرر إن كانت أزهارا قطفتَها، أو أشواكا
مشيتَ عليها..

تويتر (X)
@DrAlkashmiri
١٣ ربيع الأول ١٤٤٦هـ

بَينَ أَشْجَارِ الجُنَّار

- حين نشعر بالوحدة، نستلذ بالآلام والذكريات التي قد تصبح البهجة الوحيدة في الحياة، ونضطر للحديث مع العجماوات، ونبحث عن الراحة في قراءة الكتب، والنظر إلى الأشجار، وتقليب الأحجار في الفلاة، وبحث مكامن الاستئناس حتى في المفردات..

- ما الذي جعل فيصل يظهر كرمه لفتاة في مقهى؟ وإلى أين يأخذ هذا الكرم فيصلا؟ هل المصادفات في حياتنا تأذن بأحداث قد تغير مجرى حياتنا؟

- هل الحب بذرة تزرع فينا المشاعر المتضادة؟ وتجعلنا غير مستقرين في أحاسيسنا؟ هل ينبت الحب فينا أجنحة نطير بها بحثا عن الإلف، غير آبهين بالهوائل، والحدود، سواء أكانت تلك الحدود هي الرياض، وإسلام آباد، وكابل، وكشمير؟